الأدب الأموي

الأستاذ الدكتور
صباح نوري المرزوك
جامعة بابل



الرضوان
للنشر والتوزيع

مؤسسة دار الصادق الثقافية
طبع . نشر . توزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

صدق الله العظيم

الأدب الأموي

الأدب الأمـــوي

الأستاذ الدكتور

صباح نوري المرزوك

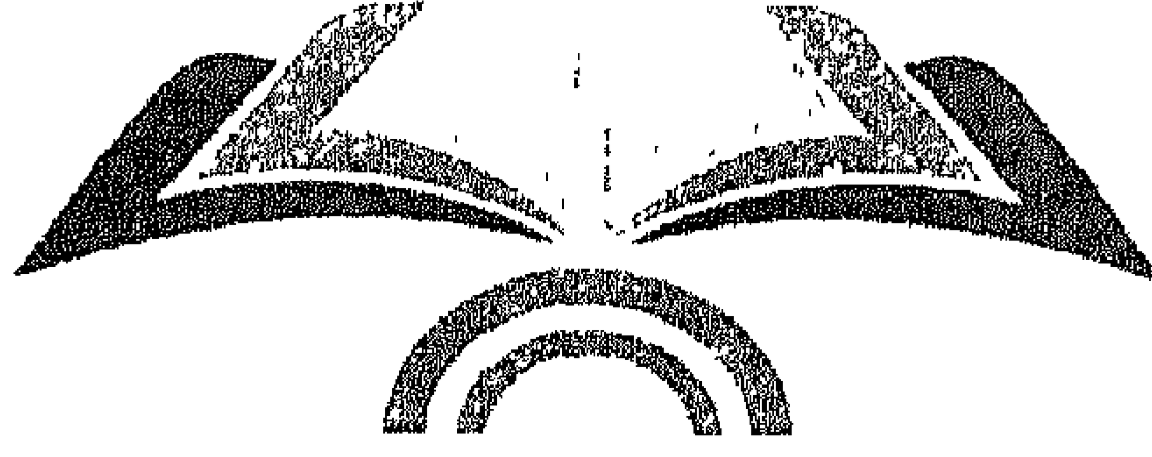
جامعة بابل

الطبعة الأولى

2015م - 1436هـ



دار الرضوان للنشر والتوزيع - عمان



الرضوان

للنشر والتوزيع

الأدب الأموي

أ. د. صباح نوري المرزوك

الواصفات:

الأدب العربي// العصر الأموي//

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2013/9/3493)

ردمك ISBN 978-9957-76-297-1

المملكة الأردنية الهاشمية

عمان – الأردن – العبدلي – شارع الملك حسين

قرب وزارة المالية – مجمع الرضوان التجاري – رقم 118

هاتف: 4611169 6 962+ هاتف: 4616436 6 962+ فاكس: 4616435 6 962+

ص. ب: 926141 عمان 11190 الأردن

E-mail: gm.redwan@yahoo.com

www.redwanpublisher.com

الفهرس

المقدمة

يتنـاول الادب الامـوي تـاريخ هـذا الادب خـلال حكـم الدولـة الامويـة الـتي دامت بين سنة 41هـ وسنة 132هـ اي المدة المحصورة بين نهاية العصر الاسلامي وبداية العصر العباسي .

لقد رافق هذا الادب تغير واضح في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية وطرأ تطور بين على مجمل الحياة الاجتماعية وهذا دعا الى ظهور تيارات شعرية جديدة وظهور شعراء جدد .

كانت ظاهرة الغزل البدوي / العذري متميزة في هذا العصر ، وكانت النقائض هي الاخرى ظاهرة استفحلت واصبحت لها خصائص وحركة شعرية خصبة .

برز هنا شعراء لهم اسماء خالدة في تاريخ الشعر العربي: عمر بن ابي ربيعة وجميل بن معمر وقيس بن ذريح وقيس بن الملوح وكثير عزة وقامات شعرية اخرى في عالم الغزل ، وجرير والفرزدق والاخطل في النقائض ومعهم الشعراء الذين تشابكوا في نقائضهم فكانت حصيلة ثرة وغنية رفدت شعرنا العربي بالجيد والرائع.

وفي الشعر السياسي: عدي بن الرقاع و الكميت بن زيد الاسدي و الطرماح الطائي وعمران بن حطان ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وعبد الله بن الزبير الاسدي وآخرون.

ويظهر النثر في الخطابة والكتابة والرسالة واعلامها : زياد ، وعبد الحميد الكاتب .

تمهيد

نبذة تاريخية عن قيام الدولة الأموية واثر ذلك في الأدب

الدولة الأموية 40- 132**هـ** = 662- 750**م**

تأسست هذه الدولة على يد معاوية ابن أبي سفيان بعد مقتل الإمام علي (ع) في الكوفة، ويقسم المؤرخون تاريخ الدولة إلى ثلاثة ادوار :

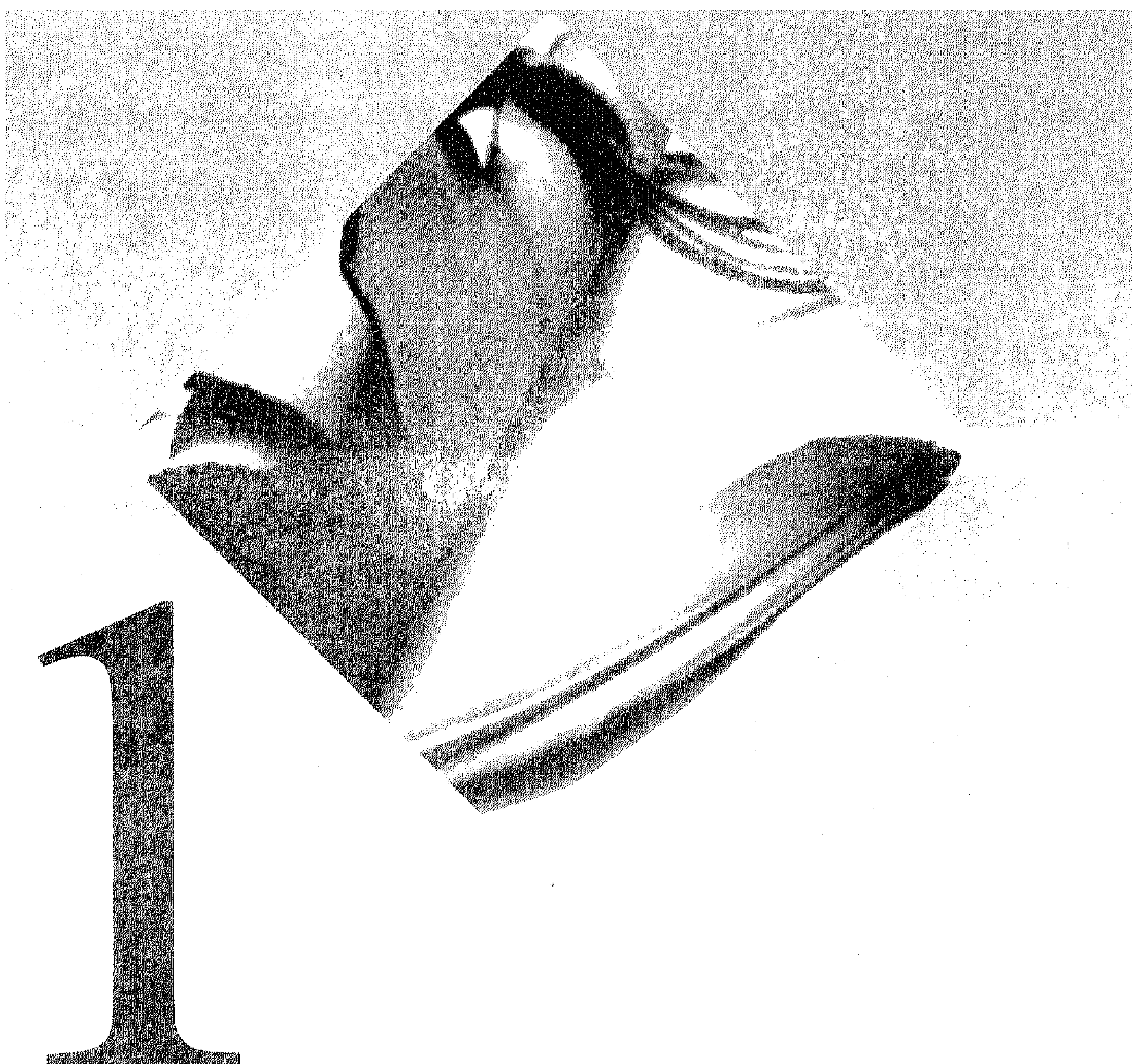
الدور الأول من 41- 64هـ /أي منذ بدء الدولة الأموية حيث حكم معاوية الأول وابنه يزيد ثم معاوية الثاني الذي ترك الخلافة .ويسمى الدور السفياني وشعراء هذا العصر لا يتجاوز عددهم عدد الأصابع بسبب عدم رسوخ الدولة من جهة وهنالك من يخالف سياسية معاوية وخلفائه ويجاهرون بعدواته انتصاراً لأعداء الأمويين من جهة أخرى.

الدور الثاني من 64- 101هـ/أي من أيام مروان بن الحكم حتى بداية حكم يزيد بن عبد الملك ويشمل حكم مروان وابنه عبد الملك وأحفاده الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وابرز الخلفاء في هذا الدور الثاني الذي يسمى الدور المرواني هو عبد الملك بن مروان حيث اختلفت الأحزاب في أيامه وتعدد طلاب الخلافة ونشبت الحروب وراجت سوق الشعر فكان الشعراء يبلغ عددهم المائة على اختلاف أغراضهم.

الدور الثالث من 101 - 132هـ /أي من حكم يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد وهشام بن عبد الملك ومروان بن محمد وفي هذا الدور تضخمت الدولة وركن أهلها إلى الترف والقصف حتى وصل إلى الحكام فكان يزيد عاشقا

والوليد خليعاً ولم يستطع هشام ومروان الثاني إرجاع الدولة إلى ما كانت عليه فانتصر العباسيون بعد مطاردتهم مروان إلى الشام وفلسطين ومصر حتى قتلوه وبمقتله 132هـ انتهت هذه الدولة.

الأدب الأموي



الادب في عصر بني امية

ظهر في الجانب الإحصائي ان شعراء القبائل قد قلوا عما كانوا عليه قبل الإسلام فقلت قبيلة قيس من 27 إلى 26 وربيعة من 20 إلى 11 ومضر من 16 إلى 9 بينما ارتفعت حصة تميم من 12 شاعراً إلى 13 وقريش من 10 إلى 23 و قضاعة من 4 إلى 8، اما الشعراء الموالي فمن شاعر واحد إلى 21 شاعراً.

وكانت ابرز المدن هي البصرة والكوفة ودمشق ومصر والقيروان ومنها انطلق الفتح الإسلامي إلى الشرق والغرب والمعروف ان هذه الدولة على النزعة العربية فرفعوا شأن العرب وقصروا وظائف الدولة عليهم وحدهم، أما الموالي فهم أتباع لهم وقد حافظ الأمويون على الثقافة العربية فنشأ أولادهم في البادية يتعلمون فيها الشعر والأدب واللغة ويكتسبون فيها الملكة العربية، كما كانت المجالس الأدبية تعقد وقد استدعى الرواة والأدباء والشعراء وأجزل لهم العطاء وفي عهدهم نمت الحواضر الإسلامية الكبرى.

ان شيوع اللحن في هذا العصر لم يزعزع من عقيدة الناس في لغتهم لأنها لغة القران فكانوا يتهيبون اللحن ويذمونه وظهرت طبقة المؤدبين والعلماء، وقد حرص الحكام على تنشئة أبنائهم تنشئة صحيحة لذلك امتاز هذا العصر بكونه عصرا عربيا خالصا لم يخضع إلا لشعراء عرب خلص ولابد ان يكون للحياة الاقتصادية اثر في توجه الشعر فالطبقة المترفة عاشت للغناء والموسيقى.

وقد أثرت الحياة السياسية وحياة التحضر والترف والالتزام بالعناصر الأجنبية والعصبية القبلية في أدب هذا العصر الأموي.

خلق الحكم الأموي شيئا من الصراع القبلي والطبقي فلقد تعاون مع قبائل عربية لتثبيت حكمه فحرك العصبيات القبلية الجاهلية من جديد بعد كاد الدين الإسلامي يقضي علها وبتفضلهم العرب ظهر الصراع الطبقي والعنصري وتزعزع كيان العرب من جديد ولاشك ان الأمويين قد سمحوا لنور الحرية ان يدخل إلى المجتمع فرأت مناطق الحجاز انفتاحا اجتماعيا وتحررا ملموسا حتى من النساء ويعود ذلك لاتساع رقعة الدولة ولوجود الأعاجم بكثرة ولاختلاطهم بالعرب حيث لم يعد المجتمع محصورا في مكان واحد إذ اتسعت ميادين العمل ونشطت التجارة وكثرت عائدات الحروب والفتوحات وازدهرت الحياة الاقتصادية وانتشر الغنى ويسرت الحال فكان من الطبيعي ان تعرف الحياة العربية شيئا من الانفتاح والتحرر.

وعلى الجانب الأدبي فقد جدد الشعر شبابه واستعاد نشاطه بعد ركوده وضعفه أيام صدر الإسلام فاسترجع الشاعر مكانته في بلاط الحكام والخلفاء وأصبح صاحب كلمة مسموعة يتكلم باسم الخليفة.وظهر ان الشعر الأموي على الرغم من تبدل الحياة العربية تبدلا كاملا فقد بقي ينشد في دمشق كما ينشد في الصحراء لذلك لم تظهر فنون شعرية جديدة في هذا العصر وإنما ازدهر بعضها مما كان سائدا في الجاهلية كالسياسة والفخر والهجاء، كما ضعف الرثاء والشعر الحكمي غير ان الغزل استقل استقلالا تاما بنوعيه العذري والحضري ورقت معانيه وجعلت صورة تشبيهاته بجمال البيئة الأموية، كما ازدهر شعر الهجاء المتطرف بين الشعراء الثلاثة جرير والأخطل والفرزدق بما سمي النقائض، اما بناء القصيدة الأموية فقد بقي كما كان في عصر ما قبل الإسلام حيث يفتتح الشاعر قصيدته بالوقوف على

الأطلال والغزل التقليدي ملتزما بالعمود الشعري محافظا على متانة التركيب الجاهلي فاقدا الوحدة لموضوعية ما عدا قصائد الغزل.

ومن الأنواع الشعرية التي عرفها هذا العصر الشعر السياسي فلم يعد هذا الشعر أبياتاً متفرقة من قصائد كتبت لغايات معينة بل أصبح غرضا يقصد بذاته وفنا شبه مستقل يتبارى فيه الشعراء.

اضطر الشعراء بسبب عامل العصبية وهم في مواقف المديح إلى ان يمدحوا أنفسهم ويمدحوا آباءهم ويفخرون بقبائلهم وأقوالهم أي ان المدح أصبح تصويرا للفضيلة الدينية في الممدوح.

وفي الرثاء امتزج الحزن بالحماسة والقوة، إما الهجاء فصار حرفة وشعرا ينشد يومياً، وزاوج الشعراء بين حب المرأة وحب الصحراء فنجحوا في الوصف وراح بعضهم يبدع في شعر الزهد ليوضح مدى إيمانه وضرورة حصوله على الجنة.

على ضوء ذلك ظلت المعاني مستمرة لامتداد قديم في الشعر الذي قبل هذا العصر الا في بعض المواضيع لكنه لا يشكل ظاهرة وكذلك الأساليب والألفاظ والصور والأخيلة يجعلنا ذلك ان نؤكد ان الشعر الأموي مرحلة وسطى بين الشعر القديم والمحدث فبقدر ما هو ملتزم بقوانين الشعر القديم كان يحاول ان يخرج إلى عالم التجديد وقد يكون قد نجح هنا وهناك.

الشعر في عصر بني أمية

ازدهر الأدب العربي في عصر بني أمية، شعره ونثره على السواء وتعددت فنونه، وشمله التجديد في كل مظهر من مظاهره، واسترعت النهضة التي بلغها آنذاك أنظار النقاد الدارسين.

وكانت الأسباب التي أدت إلى هذا الازدهار، وإلى تلك النهضة، كثيرة ومتضافرة: فالدولة عربية الصبغة وملوكها عرب، ولغتها هي العربية، ومواطن اللغة والثقافة والأدب كثيرة في هذا العصر، وعناية الخلفاء والأمراء والولاة والشعب بالأدب وتشجيعهم للأدباء موصولة، وكان لإحياء الأدب الجاهلي وروايته وتدوينه أثر في هذه النهضة، وقد اثر القرآن الكريم والحديث النبوي وبلاغات البغاء من الجاهلية حتى هذا العصر في الألسنة والأذواق وفي الأساليب والألفاظ، وفي أغراض الأدب ومعانيه وأخيلته تأثيراً كبيراً، وتعددت مجالس الأدب، ومنتدياته وأسواقه في هذا العصر، ومن أشهرها : سوق المربد بالبصرة، وسوق كناسة بالكوفة.

وقد كان لازدهار الحياة الأدبية في هذا العصر مظاهره الكثيرة : فمن ذيوع الشعر ونهضته، إلى نهضة النثر الفني متمثلاً في الخطابة والكتابة، إلى ظهور الأدب السياسي والغزل العذري والقصصي وشعر الشعوبية الذي ظهر على أيدي شعراء الموالي من مثل نصيب وعبد بني الحسحاس وهما من أصول حبشية والحيقطان وهو من أصل زنجي، وأبي نخيلة وزياد الأعجم وموسى شهوات وإسماعيل بن يسار (110هـ)، واخزته وهم من أصول فارسية، ومن أغراض الأدب الحديث الجديدة، كذلك : شعر الزهد والحكمة والعقائد

ووصف البلاد المفتوحة، وكذلك فن القصص التاريخي الذي كتبت به السيرة النبوية.

ونهضة الأدب في هذا العصر، تجلت آثارها على جميع ألوان الأدب وفنونه، فقد نبغ الكثير من أعلام الأدباء والكتاب والشعراء، وأدى الشعر والخطابة والكتابة وسائر ألوان الأدب رسالتها الأدبية في هذا المعترك الحافل بأسباب النشاط، ومجامع العلم والأدب قد تعددت وأثمرت ثمارها في خدمة التراث الإسلامي والأدب العربي.

ولقى الأدب عامة والشعر خاصة عناية من المجتمع العربي الذي كان في ذلك الحين يحل بالأدب والشعر منه منزلة رفيعة، ولقى نفس العناية كذلك من المغنين، كما لقى عناية فائقة من الشعراء الذين أقبلوا على تهذيبه وتجويده ولقد أغدق الخلفاء على الشعراء العطاء، واتخذ كل خليفة أو وال لنفسه شاعراً، واتخذ كل حزب له شعراء.

ولقد تأثر الأدب عند أهل الأمصار بصورة حياتهم، فكان لكل حزب سياسي أو طائفة مذهبية من الخوارج والشيعة والزبيرية والمروانية والمضرية والقحطانية والشعوبية شعراء ينظمون الشعر ويخطبون في تأييد نحلتهم، وخلف مربد البصرة وكناسة الكوفة عكاظ في اجتماع الشعراء والخطباء بهما، كما تأثر الأدب في الحجاز بحياة المترفين من شانه، فنشأ فيه نوع من الغزل الرقيق ومقطعات الغناء، وما زال يستفحل أمره حتى تحول على لسان بعض مجان الشعراء إلى مجون ولهو.

وتأثر في البوادي بحياة أهلها من أصحاب الجد والتوقر والجفاء منهم فبرز في ثوب الفخر والتباهي والتهاجي والتناقض والمدح والرثاء ونحو ذلك.

وتأثر عند العذريين بنزعة نفوسهم فخطر في حلة الشعر العفيف الذي يعتبر من أجمل ما قيل من الشعر العربي.

كانت للشعر دولة عند الجاهليين، وظلت له مكانته عند الرسول وخلفائه بعد الإسلام.

ثم عني الأمويون به، وعملوا على ازدهاره، وبالغوا في رعايته، ذلك لأنهم عرب يهزهم الشعر وتسحرهم بلاغته ويولونه عناية كبيرة، من جانب، ولأنه سجل تاريخ العرب وأيامهم ومفاخرهم ومآثرهم من جانب آخر، ولأنه لسان الحياة الجديدة، بما فيها من أحزاب متصارعة، وعصبيات متضارعة، ورغبات قوية في إحياء ماضي العرب الأدبي، وتجديد تاريخهم القومي والعقلي، ولأنه صار أخيراً وسيلة إلى المال والحياة والعيش الطيب الكريم.

اشتدت عناية الأمويين – خلفاء وأمراء وولاة وزعماء ورؤساء- بالشعر وعظم تقديرهم للشعراء، وخصوهم بجزيل العطاء، وعظيم الصلات، وعقدوا المجالس لإنشاده وسماعه، وجلسوا في الندوات المفتوحة لسماع المحاورات بين الأدباء والشعراء حوله.

ولا شك أن الشعر قد ازدهر في هذا العصر ازدهاراً كبيراً، وكانت مجالس الشعر والشعراء فضلاً عن سوق المربد، وكناسة الكوفة، مفتوحة، وكان الحديث فيها يدور كثيراً حول الشعراء الجاهليين وأشعرهم وحول شعراء بني أمية والشاعر الأول فيهم، هذا كله فضلاً عن خصوبة الحركة الأدبية في العواصم الإسلامية الكبرى، وخاصة البصرة والكوفة إلى عناية القبائل بالشعر إحياء لتاريخها ومفاخرها وأيامها وملامحها، وكان شعراء

القبائل لسانها الناطق، وقلبها الخافق، وسلاحها الرهيب، وجيشها المدافع عن أحسابها وأعراضها.

وإذا كانت مظاهر نهضة الشعر كثيرة فأن من أسبابها :

1- تعدد الأحزاب، فمنها سياسية كالشيعة والأموية والخوارج والزبيرية إلى جانب أحزاب دينية، ومن بينها : المرجئة والجبرية والقدرية.

2- تقدير الحكام للشعراء ورعايتهم لهم، واتخاذ الشعراء ناطقين باسمهم، ونجد مظهر ذلك في كعب بن جعيل الذي اتخذه يزيد شاعر الشام، حيث كان النجاشي شاعر العراق، وكان مسكين الدرامي من المؤيدين لبيعة يزيد، وقد هجت الأخطل الأنصار بأمر يزيد حيث يقول فيما يقول:

ذهبت قريش بالمكارم والعلا　　　واللؤم تحت عمائم الأنصار

وصار الأخطل بعد ذلك شاعر عبد الملك بن مروان السياسي، كما كان عدي بن الرقاع شاعر الوليد بن عبد الملك، وقرب الوليد إليه أيضاً أعشى بني تغلب، وكان عبد الرحمن بن حسان شاعر الأنصار.

ومن شعراء زياد بن أبي سفيان : حارثة بن بدر، وكان من شعراء الحجاج: جرير والفرزدق، ومن شعراء المهلب: كعب الأشقري، وحبيب بن عوف والطفيل بن عامر، ومن شعراء بشر بن مروان، جرير والفرزدق وكثير وأعشى شيبان، ومن شعراء عبد العزيز بن مروان : جميل، ونصيب، وكثير، وابن الرقيات، وأيمن بن خريم.

وكان من شعراء مكة أبو العباس الأعمى، ومن شعراء المدينة الأحوص، ومن شعراء الكوفة عبدالله بن الزبير الأسدي والكميت، ومن شعراء البصرة جرير والفرزدق، ومن شعراء الجزيرة : الأخطل والقطامي وأعشى تغلب، ومن شعراء الشام: عدي بن الرقاع، والأخطل.

3- ازدهار الثقافة العربية في مختلف فروع المعرفة والعلم.

4- ازدهار الثقافة الأدبية في الشعر والأدب والنقد والقصص، وإحياء التراث الأدبي القديم، وما تبع ذلك من عقد المجالس لسماع الشعر وإنشاده، ونقده وروايته، ومن اهتمام الخلفاء بتربية أبنائهم على الشعر وتذوقه، حتى كان معاوية يقول: اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر آدابكم، فإن فيه مآثر أسلافكم [1]، وكان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب أبنائه: أدبهم برواية شعر الأعشى، ويقول لأبنائه: عليكم بطلب الأدب فإنكم ان احتجتم إليه كان لكم مالا، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا، وكان خلف وكثير من الرواة يدرسون تلاميذهم على قرض الشعر، وكثير رواة الشعر في هذا العصر ومن بينهم : الشعبي وحماد وأبو عمرو بن العلاء، ويونس، وخلف.

5- هذا إلى خصوبة الحياة السياسية وشدة الصراع فيها بين مختلف الأحزاب والعصبيات والطوائف، وإلى كثرة مظاهر الحضارة ومشاهدها، وإلى التأثر بالشعر الجاهلي ومناهجه والتأثر كذلك

(1) 41/2 وفيات الأعيان.

بالقرآن وبلاغته وبالحديث النبوي الشريف وفصاحته، أيما تأثر، وإلى قيام الخصومات الأدبية بين الشعراء، وإلى اهتمام القبائل بالشعر إحياء لمفاخرها ومآثرها، وإلى تأثر الشعراء بآداب الأمم الأخرى وبخاصة الفرس.

وكان من آثار هذه النهضة الشعرية ارتفاع منزلة الشعر والشاعر في عصر بني أمية، ونشأة علوم حول الشعر: كرواية الشعر ونقده وتأليف كتب اختيارات فيه، ومن آثارها كذلك قيام حركات في الشعر، وصقل الشعراء لفنهم وتهذيبهم لأساليب الشعر، وتجديدهم في معانيه وسموهم بأخيلته.

وقد بلغ من سيرورة الشعر وذيوعه في هذا العصر أن أصبح على كل لسان وفي كل فم، واحتل بذلك مكانة الصحابة اليوم، وكان أقوى مظهر أدبي في هذا العصر، بل أصبح الفن الأول من بين فنون الأدب في عهد بني أمية.

على أن الشعر الأموي إنما كانت بيئاته هي الحجاز ونجد والعراق والشام فهي مهد الشعراء، وفيها نهضة الشعر: أما مصر وكذلك الشمال الأفريقي فلم تحفل بالشعر ولا بالشعراء في عهد بني أمية لأنها بيئات جديدة في الأدب والشعر، ولم تسترع انتباه الشعراء كثيراً في هذا العهد.

أما بيئة الحجاز، فقد اهتم أهلها بالشعر، وعنوا به وبنقده عناية شديدة، فكان أن شاع التغني به، وظهرت فنون جديدة منه : كالغزل القصصي، والغزل العذري، وقد أغدق الخلفاء على شباب الحجاز المال والعطاء، ليصرفوهم عن المطالبة بالخلافة، فذاع الترف، وانتشر النعيم وكثر اللهو.

وأما بيئة العراق فكانت صبغتها ثورية، وانطبع شعرها بالطابع الثوري، وظهر فيه تبعا لذلك لون جديد هو الشعر السياسي، الذي كان يدور حول الخصومات السياسية بين الخليفة ومعارضيه من الأحزاب وقد اهتم ولاة العراق بالشعر وأغدقوا على الشعراء بالمال، ومن أشهرهم زياد والحجاج.

وأما بيئة الشام حيث عاصمة الخلافة ومستقر بني أمية، وحيث المال والترف، فقد تساقط عليها الشعراء، طلباً للرفد، والتماساً للعطاء، وطمعاً في المال، وكانت قصائد التهنئة والمدح والفخر تبقى بين أيدي الخلفاء والأمراء والولاة في دمشق وفي غيرها من مدن الشام الحافلة بأسباب النشاط.

وأما مصر فلم يبلغ فيها الشعر هذه المنزلة، مع أن الشعراء كثيراً ما كانوا يفدون على ولاتها مادحين، ومثل مصر شمال أفريقيا، وقد يكون ضياع الشعر فيهما هو سبب ذلك، ويرى أحمد أمين أن الشعر العربي لم ينتقل من بيئته إلى بيئة أخرى، وأن الشاعر العربي لم يشعر إلا في بيئته، في الجزيرة العربية وما جاورها، وهذا خطأ واضح، فان مصر وفارس وشمال أفريقيا كانت بعد قليل من هذا العصر من أهم مراكز الشعر، على ان الاهتمام بالشعراء وبالشعر هو السبب الأول لنمائه دائماً، فإذا قل من يشجع الشعر ويثيب عليه كان في ذلك ضعفه، ولاشك ان الشام والعراق والجزيرة العربية كانت دائماً موضع عناية بالشعر واهتمام بالشعراء، على ان الشعر لا وطن له، فكما ينشأ في البادية كذلك ينشأ في المدينة، وإنما مدار ذلك على ما يلقى الشعراء من تشجيع، وعلى العناية بحفظ الشعر وتدورنه، وانتقال الشعر من بيئة الحجاز إلى الحواضر الكبرى تبعا لانتقال المسلمين إليها، اكبر دليل على ما نذهب إليه، وأقوى رد على احمد أمين ومن يشايعه.

تأثر الشعر بالدين والقرآن تأثراً كبيراً في هذا العصر، مما أدى إلى التطور في معانيه وأساليبه وبعض أغراضه،

فالشعر الديني في هذا العصر، وكذلك الغزل العذري فيهما قبسات من روح الإسلام، وكذلك نجد لجرير مثل قوله:

صلى الملائكة الذين تخيروا والطيبون عليك والأبرار

وابن الرقيات يقول:

وإنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

يتقى الله في الأمور وقد أفـ ـلح من كان همه الاتقاء

وجميل يقول:

ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعا يتضرع

والطرماح يقول:

إنما الناس مثل نابتة الزر ع متى يأن يأت محتصده

وقطري يقول:

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى

فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لن تطاعى

والعجاج يقول في مطلع أرجوزة له:

الحمد لله الذي استقلت بإذنه السماء واطمأنت

وأعشى همدان يقول في الحجاج:

أبى الله إلا أن يتم نوره ويطفئ نار الفاسقين فتخمدا

هذه الأمثلة القليلة تمثل تأثر الشاعر الأموي في معانيه وأساليبه بروح الدين والقرآن الكريم.

و لعبت السياسة دورها الكبير في الشعر الأموي، وقامت الأحزاب السياسية العديدة، وكان الشعر السياسي صدى لها، وتبعه كذلك شعر النقائض، وشعر الشعوبية، وشعر العصبيات القبلية.

اتسعت الثقافة في عصر بني أمية، فشملت الثقافة الإسلامية والعربية والأدبية، وتعددت بيئات الثقافة، مواطن العلم في مكة والمدينة والحجاز والشام، وبخاصة دمشق ومصر والقيروان وطرابلس وتونس والبصرة والكوفة وسواها، وتصدر حلقات العلم في الممالك الإسلامية الصحابة والتابعون، واستفاد العرب من معارف الأمم الأخرى فبدأوا في الترجمة منها إلى العربية، وأفاد ذلك كله الشاعر العربي ثقافة في أفكاره ومعانيه وأخيلته وثقافة في فنه الشعري.

وانظر إلى ذي الرمة وكان قدريا يقول باكتساب الإنسان لأفعال نفسه الاختيارية يقول:

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان في الألباب ما تفعل الخمر

فقيل له: هلا قلت: فعولين، فأنكر ذلك إنكاراً شديداً، لأنه لو قال: فعولين لكان جبريا، وهو راغب عن الجبر إلى القول بالقدر.

واتضحت مناهج الشعر أمام الشاعر الأموي بتأثير الثقافة، وأخذ الشباب يتعلم الشعر كما يتعلم الأدب والخطابة تعلما، وقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً في تطور الشعر الأموي.

ارتقى ذوق العربي واتسعت نظراته لمشاهد الحضارة في كل مكان نزل فيه. فمن حضارة فنية وحضارة سياسية وحضارة فكرية، ومن مخالطة لأبناء الحضارات القديمة، واتصال بعلومها وتراثها الحضاري، إلى غير ذلك. وهذا كله مما أفاد منه الشاعر الأموي سعة الخيال، ورجا به أفق في الأفكار والمعاني، وتنوعا في الأغراض، وتجديداً في الأسلوب والأداء.

وفي البيئات الحضرية أخذت لغة الشعر تميل إلى العذوبة والرقة والسماحة، وقصد الشعراء الأوزان السهلة، وتخيروا الرجز لقربه من العقلية الشعبية، من حيث كان كثير من شعراء البادية يحافظون على الأنماط الشعرية القديمة من جزالة وغرابة وفحولة معان وغير ذلك.

وكان شعر الموالي بين ثقافات منوعة وعقلية ناضجة، لذلك كثرت فيه المعاني الجديدة والأخيلة البديعة، وذهب بعضه في الشعوبية ومذاهبها.

ويرقى الغناء وتعدد مذاهبه رقت لغة الشعر، وصار المجال فسيحاً أمام الشعراء الغنائيين والعذريين والقصصيين.

كثرت الأموال في أيدي الشعراء العرب في العصر الأموي، وكثرت منح الخلفاء والأمراء والولاة، وعاش الشاعر الأموي بذلك في ترف كبير، وكانت الحياة الاقتصادية في عصرهم تكاد تبلغ ذروتها رخاء ورفاهية وسعة في التجارة والزراعة والصناعة حتى لم يجد الخليفة عمر بن عبد العزيز يأخذ الزكاة، فلا عجب ان يعيش الشعراء كما عاش الناس في عصرهم يتمتعون

بفراغ وثراء وجاه، كان من أثره ان أثرى الشعر، وتمتع الشاعر بالخيرات الكثيرة في وطنه، وبسماع الغناء، واقتناء الجواري، وحسن المظهر، وكان لذلك أثره في حياة الشعر والشعراء في هذا العصر العظيم[1].

كانت تسير اللغة العربية والأدب العربي والثقافة الإسلامية حيثما تسير الفتوحات الإسلامية، فحيثما يفتح المسلمون البلاد، تقيم فيها حاميات من جند المسلمين، على هذه الحاميات قواد من العرب، وبجانب الجيش أمراء يحكمون هذه البلاد، وغالباً ما يكونون هم أمراء الجيوش وبجانبهم تنزل القبائل العربية المهاجرة تتكلم اللغة العربية، وتذيع الأدب العربي، وتأخذ لهجتها ولغتها العربية في الذيوع بين سكان البلاد الأصليين ببواعث الجوار والاختلاط والسيادة والمصالح المشتركة، ويقبل من يدخلون في الإسلام من أهل البلاد الصميمين على تعلم لغة العرب، والتأدب بآدابهم، وحفظ أشعارهم، وتعلم علومهم، ومن ثم انتشرت اللغة وذاع الأدب في كثير من البلاد المفتوحة، وقامت مواطن الأدب في المملكة الإسلامية المترامية الأطراف التي كانت تستظل بظل الأمويين، وتتجه إليهم في كل مناسبة، وإلى عاصمتهم الكبرى دمشق عاصمة الإسلام وحاضرة خلافة المسلمين إبان حكم الأمويين.

ومن الجدير بالذكر أن نقول : إن بيئة الحجاز شاع فيها الغناء وخاصة مكة والمدينة، ولعل السبب في ذلك كثرة أبناء الموالي في الحجاز وكثرة الترف في مدن الحجاز، وكثرة الفراغ كذلك وظرف الحجازيين ورقهم،

---

(1) الحياة الأدبية- عصر بني أمية: محمد عبد المنعم خفاجي ،دار الكتاب اللبناني- بيروت 1980 ص77- 86.

ويروي أنه كان لمغني مكة مذهب في الغناء، ولمغني المدينة مذهب كذلك، وكان بين الفريقين مفاخرات.

واشتهرت بيئة الحجاز الأدبية بالغزل القصصي والعذري، وقل هنا الهجاء والمدح، وكان من شعراء مكة: عمر والعرجي وابن قيس الرقيات وأبو العباس الأعمى، كما اشتهر في المدينة الأحوص وإسماعيل بن يسار وإخوته، وعبد الرحمن بن حسان، وعبد الرحمن بن الحكم.

واشتهرت بوادي الحجاز ومثلها نجد بالغزل العذري، وكانت الحجاز مهد المهاجرين والأنصار، ورجال قريش وأشراف العرب وموطن الصحابة وسادة المسلمين، وفيها زعماء البيت العلوي: الحسن والحسين، وأبناء الخلفاء أمثال : عبدالله بن عمرو، وعبدالله بن أبي بكر، وفيها أمثال عبدالله بن الزبير وسواهم من الطامحين في الخلافة والمناوئين للأمويين، وقد استعمل الأمويون مع المعارضة في الحجاز سوط الرهبة والفزع، وبذروا هناك الأموال الضمة، فبعد أن كان عطاء الحسن أو الحسين في عهد عمر خمسة آلاف درهم في العام عطاء كل منهما في عهد معاوية ألف ألف درهم.

وقد قضى يزيد على ثورة الحسين بمنتهى الشدة عام 61هـ- 681م، وقتل الحسين في كربلاء من أرض العراق، واستباح يزيد حرمة المدينة وبطش بزعمائها في موقعة الحرة المشهورة.

وحكم عبدالله بن الزبير الحجاز تسعة أعوام نودي فيها بلقب الخلافة، وذلك من عام 64هـ- 684م حتى 73هـ- 692م وحاصره الحجاج في مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق وسلم ابن الزبير نفسه وقتل هو وأنصار، وكان له فضل كبير في تعمير الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم وإسماعيل عام 65هـ.

وكانت مجامع المدينة أرقى المجامع الثقافية في العالم الإسلامي، وأحفلها بالشعر الغنائي، وكانت لها شهرة بالترف والغناء واللهو المباح.

أما بيئة العراق فقد ذاعت شهرتها بالشعر السياسي وكثرت فيها الأحزاب السياسية وثورات المعارضة التي قضى عليها الأميران : زياد بن أبي سفيان المتوفى عام 53هـ- 673م، والحجاج بن يوسف الثقفي المتوفى عام 93هـ- 712م، بمنتهى الشدة والقسوة والبطش.

أما الشام فكانت مقر الخلافة ومستقر الحزب الأموي الحاكم وأعوانه وجيوشه الجرارة من جند الشام.

وأما مصر فكان النفوذ فيها للبيت الأموي، وتنازعها عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم، ولكنها خلصت للأمويين وحدهم بعد قليل.

وقد امتاز العراق بنشاط الأحزاب السياسي فيه، وكثره الفرق الدينية، واشترت مجامع العراق بالتبريز في علوم اللغة وذلك:

1- لشدة الاحتياج إليها في العراق، لفساد الملكات فيه بالاختلاط وكثرة عناصر الموالي بين ربوعه.

2- تعدد العناصر والثقافات والأفكار والأجناس في العراق وامتزاجها.

3- كان العراق موطن السريانية، وكان للسريان قواعد في منظمة اللغة والنحو.

وكان بين البصرة والكوفة منافسة شديدة في الأدب والعلم، ولكن شهرة البصرة كانت باللغة وعلومها من نحو وغيره، وذلك لتبحرها في العمران، ولقربها من البادية التي عرف آهلها بالفصاحة وصدق اللهجة.

أما الكوفة فقد ذهبت شهرتها بعلوم الشعر وروايته، ومن أشهر مجامع الأدب والشعر في العراق: مربد البصرة، وكناسة الكوفة.

وكانت أهم مواطن الأدب والثقافة في عصر بني أمية هي مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط:

أما مكة فهي البلد الحرام، مولد رسول الله، ومهبط الوحي ولما فتحها الرسول خلف فيها معاذ بن جبل يفقه أهلها، وكان معاذ من أفضل شباب الأنصار علماً وحلماً، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، وكان يعد من أعلم الصحابة بالحلال والحرام، ومن أقرئهم للقرآن، وممن جمع القرآن على عهد الرسول، وقد روى عنه ابن عباس وابن عمر ومات عام 18هـ في الشام.

ولما خرج معاذ إلى الشام قال عمر: لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه والفتيا.

ومن علماء مكة: عبدالله بن عباس، وكان يجلس في البيت الحرام، يعلم التفسير والحديث والفقه والأدب، وهو وتلامذته يردع إليهم الفضل في شهرة مكة المكرمة وتوفي عام 688م.

ومن علمائها: عطاء بن أبي رباح، وطاوس بن كيسان، ومجاهد بن جبير، وثلاثتهم من الموالي ومن التابعين.

وكذلك كان من علمائها من التابعين ومن الموالي من الطبقة الخامسة بها: سفيان بن عيينة، ومسلم بن خالد الزنجي، وكانا من أساتذة الشافعي الذي ولد في غزة، وحملته أمه صغيراً إلى مكة، فتعلم الأدب في باديتها،

وحفظ الشعر، وتعلم العربية، ونشأ في مدرستها يأخذ الحديث والفقه عن علمائها، ولما قارب العشرين من عمره تحول إلى المدينة يتم دراسته فيها.

وكانت المجالس الأدبية كثيرة في مكة بين الشعراء، ولاسيما في مواسم الحج، كما كانت تعقد في المسجد الحرام، روى المبرد في كامله [1] أن ابن عباس كان بالمسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه، إذا أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبغين موردين. حتى دخل فجلس، فأقبل عليه ابن عباس، فقال : أنشدنا فانشده رآيته المشهورة إلى فتح بها عمر صفحة جديدة في تاريخ الغزل، ونقله من مظهره التقليدي إلى لون قصصي جديد كل الجدة عدّ عمر زعيمه وأبا نشأته، وآخذ عمر ينشد:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح متهجر؟

حتى أتى على آخرها، فأقبل نافع على ابن عباس، وقال له: يا ابن عباس إنا نضرب إليك أكباد الإبل : نسأل عن الحلال والحرام، فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من قريش فينشدك:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت   (فيخزى)، وأما بالعشي (فيخسر)

فقال ابن عباس : ليس هكذا قال: إنما قال:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت   فيضحى وأما بالعشي فيخصر

فقال له نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت، قال أجل بل إن شئت أن أنشدك القصيدة فعلت، ، قال فإني أشاء، فأنشده القصيدة كلها.

(1) 144- 145 ج2 الكامل.

وأما المدينة فكانت لها شهرتها الأدبية، وذوقها الحساس، ونقدها اللماح، من لدن الجاهلية- حتى كان النابغة يقول: " دخلت المدينة وفي شعري عهده، وخرجت منها وأنا أشعر الناس"، وجاء الإسلام وهاجر إليها الرسول ﷺ، وكان له شعراء ينافحون عن دعوته، ويذودون عن رسالته، وعلى رأسهم حسان بن ثابت.

ويروي ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال قدم علينا رسول الله ﷺ المدينة، وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر، قيل له: وأنت يا أبا حمزة ؟ قال: وأنا، وابن سلام الجمحي حين يتحدث عن شعراء القرى العربية (مكة والطائف واليمامة والبحرين) يقول : أشعر هذه القرى قرية المدينة.

وكان حسان بن ثابت ينشد الشعر في هجاء خصوم الرسول ﷺ وهو يقول له: قل وروح القدس معك، والله لشعرك عليهم أشد من وقع الحسام في غبش الظلام، ويروي أن عمر مر ذات يوم بحسان، وهو ينشد شعره في مسجد الرسول ﷺ فقال له: أرغاء كرغاء البكر؟ فقال حسان دعني من هذا يا عمر، فوالله لقد كنت أنشد في هذا المكان من هو خير منك فلا يغير عليّ شيئا.

وتتابعت الأحداث على المسلمين وقامت دولة الأمويين فكانت المدينة تحمل دائماً لواء المعارضة للحاكمين، وعاد شعراؤها إلى ما كانوا عليه أيام الجاهلية من هجاء لاذع، وتنابز وتقاذف، حتى كان عبد الرحمن بن حسان يهجو معاوية هجاء قبيحاً حين استحلف زيادا، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم في المدينة، فتهاجيا وتفاحشا.

وكان للشعراء فيها مجالس يتناشدون فيها الشعر وينقدونه، ويستعرضون منه ما يعيبون من رديئه، ويستحسنون من جيده، يروي أن عمر بن

أبـي ربيعـة قـدم المدينـة فـاجتمع بـه الأحـوص ونصـيب وكـثير، فتحـدثوا مليـا وأفاضوا في ذكـر الشعراء، فاقبل كثير على عمر، فقال له: إنـك لشـاعر لـولا أنك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك، أخبرني يا هذا عن قولك:

ثـم اسـبطرت تشـتد في أثـري　　تسأل أهل الطواف عن عمـر[1]

أراك لـو وصـفت بهـذا هـرة أهلـك ألم تكـن قـد قبحـت وأسـأت وقلـت الهجر، إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع، ألا قلت كمـا قـال الأحوص:

أدور ولـــولا أن أرى أم جعفــر　　بأبيـــاتكم مـــا درت حيـــث أدور

وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى　　وإن لم يـــزر لابـــد أن ســـيزور

لقـد منعـت معروفهـا أم جعفـر　　وإنـــي إلى معروفهـــا لفقـــير

فانكسـرت نخـوة عمـر ودخلـت الأحـوص الخـيلاء، فأقبـل كـثير علـى الأحوص وقال له: لقد أبطل آخرك أولك، أخبرني عن قولك:

فـان تصـلي أصـلك وإن تبـيني　　بهجـــر بعـــد وصـــلك لا أبـــالي

أمـا والله لـو كنـت حـرا لباليـت ولـو كسـر أنفـك، ألا قلـت كمـا قـال نصيب:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب　　وقـل إن تملينـا فمـا ملـك القلـب

فانكسر الأحوص ودخلت نصيباً زهوة، فلما رأى أن الكبرياء قد دخلته التفت كثير إليه وقال : وأنت يابن السوداء أخبرني عن قولك:

(1) اسبطرت: أسرعت . تشتد: تعدو.

أهيم بدعد ما حييت فان أمت ... فواكبدي من ذا يهيم بعدي؟[1]

أهمك ويحك من يهيم بها بعدك؟ فلما أمسك كثير أقبل عليه عمر، فقال له: قد أنصتنا لك فاسمع، أخبرني عن تخيرك لنفسك وتخيرك لمن تحب حيث تقول:

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة ... بعيران نرعى في الخلاء ونعزب[2]

كلانا به عر فمن يرنا يقل ... على حسنها جرباء تعدى وأجرب[3]

إذا ما وردنا منهلا صاح أهله ... علينا فما ننفك نرمي ونضرب

وددت وبيت الله أنك بكرة ... هجان، وأني مصعب ثم نهرب[4]

تكون بغيري ذي غنى فيضيعنا ... فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

فقد تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمي والطرد والمسخ فأي مكروه لم تتمن لها ولنفسك؟

وهكذا كانت المدينة تعج بالشعراء الذين يقولون فلا يبالون من سطوة حاكم ولا يرهبون قوة ظالم، وبالنقاد الذين ينقدون فيحسنون، ومن هنا

---

(1) أنشد البيت في مجلس عبد الملك فنقده وقال: الجيد أن يقول:

أهيم بدعد ما حييت فان أمت ... فلا صلحت دعد لدى خلة بعدي

(2) نعزب: نبعد في المرعى.

(3) العر بالضم والفتح: الجرب.

(4) البكرة: الناقة الفتية، ناقة هجان بيضاء اللون كريمة . المصعب الفحل الذي يترك فلا يركب.

كانت عينا ثرة بالشعر، ومنبعا فياضا بالأدب، لا يغيض ماؤه، ولا يحول رواؤه.

وكانت المدينة من أهم مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ الهجرة، فقد هاجر إليها النبي ﷺ وعلم بها أكثر تعاليم الإسلام، وكانت مقام كثير من الصحابة الذين تلقوا عن النبي ورووا أحاديثه، وكان بها كثير من الموالي الذين أتى بهم أسرى من الممالك المفتوحة وأسلموا وتلقوا العلم من الصحابة وقد اشتهرت المدينة بالعلوم الدينية من تفسير للقرآن ومدارسة للحديث واستنباط الأحكام منهما، واشتهر من علمائها زيد بن ثابت[1]، وعبدالله بن عمر بن الخطاب من الصحابة، ثم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير بن العوام (23-94هـ) من التابعين، ومن عندهم كان الإمام مالك ابن أنس صاحب المذهب المشهور.

ومن علمائها : صالح بن كيسان وكان يؤدب عمر بن عبد العزيز، ومن علمائها كذلك: ابن شهاب الزهري القرشي (51- 124هـ).

ولم تقتصر المدينة على الشهرة في المسائل الدينية بل نبغ فيها كثير من رجال التاريخ كمحمد بن إسحاق والواقدي[2]، وهما يعدان من أشهر المصادر الأولى للسير والمغازي، وقد ساعد المدينة على بلوغها هذه المنزلة أنها كانت مقر الخلافة في عهد الراشدين ومجتمع الموالي الذين سبوا من مختلف البلاد

---

(1) يروى انه ما كان عمر ولا عثمان يقدمان عليه احدا في القضاء والفتيا والفرائض والقراءات وظل كذلك في عهد الإمام علي عليه السلام ومعاوية وتوفى عام 45هـ، وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول هكذا يفعل بالعلماء.

(2) توفي عام 107هـ وله (اخبار مكة) و(فتوح الشام).

الإسلامية وأغلبهم من عناصر متحضرة، وممن برعوا في النادرة والفكاهة في المدينة: الغاضري وأشعب، وفي الغناء معبد.

وأما البصرة والكوفة فهما أشهر مدن العراق، والعراق قطر شهر من قديم بالحضارة، تداولت عليه أمم كثيرة متمدنة وتركت فيه آثارها العلمية والفنية، وهو إلى ذلك قطر غني خصب كثرت مياهه وخيراته، وقد أسست هاتان المدينتان في عهد عمر بن الخطاب[1] ونزل بهما كثير من الصحابة واختلط فيها العرب بالموالي بالتزاوج والسكنى، وأصبحتا بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العلمية، فكان في الكوفة عبدالله بن مسعود من الصحابة وشريح والشعبي وسعيد بن جبير من التابعين، ثم أبو حنيفة النعمان إمام المذهب المنسوب إليه، واشتهر علماء البصرة أبو موسى الأشعري 70هـ، وأنس بن مالك من الصحابة 92هـ، ثم الحسن البصري 110هـ، وابن سيرين 110هـ من التابعين، واشتهرت هاتان المدينتان أيضاً بالنبوغ في علوم النحو واللغة وتفوقت البصرة في ذلك، فكان من علمائها أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن احمد، والأصمعي، واشتهر من الكوفيين الكسائي، وكان بين المدينين تنافس في اللغة والأدب والصرف وعلم الكلام، ولكل علماء يتعصبون لمذهبهم وينصرونه بحججهم، وكان الكوفيون على الجملة أكثر استعمالا للقياس، والبصريون أكثر ايثارا للسماع، وكان يعيش في البصرة الفرزدق وجرير، وفي الكوفة الكميت بن زيد الأسدي وذو الرمة.

---

(1) اختطت البصرة عام 14هـ، ولم تعمر إلا عام 17هـ، ، واختطت الكوفة في هذا العام 17هـ.

وأما الفسطاط فكانت في مقدمة المدن الإسلامية التي ازدهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية واختطت عام 21هـ وأول من اشتهر بها من العلماء: عبدالله بن عمرو بن العاص أحد كبار الصحابة، ثم عبدالله بن لهيبعة (96-160هـ) وهو من اكبر المصادر الذين يروى عنهم كثير من الأحداث التاريخية في فتح العرب لمصر، ثم الليث بن سعد (94- 175هـ)، احد الأئمة الذين يقرنون بمالك وأبي حنيفة لولا ان تلاميذه أضاعوا مذهبه، ثم نزل بها الإمام الشافعي ودرس فيها ووضع مذهبه الجديد، ومن علمائها كذلك نافع 120هـ، هذا وقد وفد على الفسطاط من الشعراء: جميل وكثير ونصيب والرقيات وأيمن بن خزيم، وأقام فيها أبو العيال الهذلي 46هـ، وسواهم من الشعراء.

وقد دخلت مصر في ظلال الحكم الإسلامي عام 20- 640م بفضل عمر بن العاص (547هـ- 663م)،وقد فرغ ابنه عبدالله بن عمرو ابن العاص(36ق.هـ-68هـ-688م) للعلم والإرشاد وتهذيب الناس.

وهاجر إلى مصر من الصحابة والتابعين الكثير، وهاجر كذلك إليها الكثير من القبائل العربية.

وقد حكم مصر أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً، اثنان منهم وليا الحكم مرتين وواحد وليه ثلاث مرات، وحكم احدهم البلاد نائبا عن ابن الزبير ولم يلبث ان عزله الخليفة مروان،وكان من هؤلاء من بيت بني أمية :عبد العزيز بن مروان (65- 86هـ)، وعبدالله بن عبد الملك الذي وليها عام 86 – 705م، وقد اصدر عام 86هـ أمرا باستعمال اللغة العربية في المعاملات الرسمية، وبذلك اخذ أهل مصر يقبلون على تعلم العربية، وينصرفون عن اليونانية والقبطية تدريجاً، وفي عام 86هـ حولت دواوين مصر إلى العربية،

وكان آخر الأمراء عليها عبدالله بن عبد الملك الذي ولي مصر 132هـ وقد وليها الوليد بن رفاعة الفهمي القيسي قبل عام 109هـ.

ومن علماء مصر في هذا العهد، أبو عبيدة المغافري ونافع المتوفى عام 12هـ، وقد بعثه عمر بن عبد العزيز ليعلم أهلها السنن، وعبدالله بن عمرو بن العاص المتوفى عام 68هـ - 688م والليث بن سعد (94- 175هـ)، وابن لهيعة (96- 160هـ).

ووفد على مصر في عهد عبد العزيز بن مروان : نصيب وجميل والليث وكثير وابن قيس الرقيات وأيمن بن خزيم.

وأما دمشق فهي عاصمة الأمويين ومنارة العلم والثقافة والأدب، ومقصد الناس من كل حدب وصوب، وبها كثير من العلماء والأدباء والشعراء، فوق من كانوا يفدون إليها من كل جهة رغبة في المعرفة أو حرصا على مال الخلفاء والأمراء. وممن اشتهر فيها من المسيحيين يوحنا الدمشقي.

وقد أخذ خالد بن يزيد بن معاوية صنعة الطب والكيمياء والنجوم عن مسيحيي الشام وتوفي عام 89هـ، ويقول الجاحظ فيه :كان خطيباً شاعراً كثير الأدب حكيماً، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة، وقرب أهل الحكمة، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات[1].

وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ويترجم بعض رسائل أرسطو.

---

(1) رسائل الجاحظ نشر السندوبي.

وكان عدي بن الرقاع بعيش في الشام، وكان في الشام: معاذ وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي ورجاء بن حيوة وسواهم.

وقد أخذت اللغة القرشية تسود الشام بعد الفتح الإسلامي بعد ان كانت السيادة للغة الآرامية أو اليونانية[1].

لم يخرج شعر هذا العصر في جوهره عما كان عليه الشعر في عصر صدر الإسلام من حيث المعاني والألفاظ والأساليب والأوزان، غير ان الأحوال التي جدّت في الحياة الإسلامية من سياسية واجتماعية وفكرية، قد أثرت فيه، فتأثّر بها، وظهر فيه شيء من التنوع والتوسع في الأغراض.

وكان أهم ما ظهر فيه من الألوان الجديدة، هو : " الشعر السياسي"، و " شعر المناقضات"، و" الشعر الغزليُّ الاباحيُّ " و " العذريُّ "، كما برزت ألوان آخرى دون هذه أهمية كانت في وصف البلاد المفتوحة والحروب الدائرة، وما فيه تعبير عن عاطفة دينية من دعوة إلى زهد، وترغيب في الآخرة، أو نكير على ما يخالف الدين.

أما الفنون التي توسعوا فيها، فمنها (الأراجيز) وقد جاؤوا منها بالمطولات بعدما كان الراجز لا يقول إلا البيت والبيتين أو الأبيات القليلة في أغراض خاصة كالحذاء، أو وصف الحيوانات، أو عند المبارزة في القتال، أما رجّاز هذا العصر فقد جاوزوا تلك الأغراض إلى أغراض القصيد الأخرى : من مديح وفخر ورثاء وهجاء ووصف وغزل، واستهلوها كما يفعل شعراء القصيد بالنسيب والتشبيب، ومنها (الراعويّات)، وهي ما يقال في الراعي وما يرعى،

---

(1) الحياة الأدبية، عصر بني أمية 33- 44.

وفي وصف الإبل والأضعان والحدوج، ومواضع البادية ومياهها، وما يتصل بمثل ذلك، وقد طوّلوا القول فيها " كالرجز " وتوسعوا في أغراضها وكذلك توسعوا في " المديح " " والهجاء" وبعض " الأوصاف".

ان هذه الألوان الشعرية التي اصطبغت بها حياة الأدب في هذا العصر، قد اختلفت باختلاف البيآت والأقاليم والمؤثرات المحلية ودواعي القول، فظهر " الشعر السياسي" قوياً في العراق أكثر من الأمصار الأخرى، إذ كانت الداعية إليه أقوى فيه وأشد، بسبب ما نشأ فيه من الثورات والفتن، وما ظهر فيه من الأحزاب والمذاهب والنِّحل، فكان الصراع السياسي فيه حاداً شديداً. ظهر – الشعر الغزليُّ العابث- عند نفر من شعراء الحجاز أغدقت الدولة الأموال عليهم لتصرفهم عن التفكير في شؤون الخلافة، وتبعدهم عن السياسة، فأترفوا ونزعوا إلى اللهو والغزل العابث، كما شاع – الغزل العذريُّ- في البادية بسبب ما احتفظ به شعراء القبائل من تصوُّن وحفاظ وأخلاق بدوية زادها الإسلام عفة وطهراً.

أما الأغراض المعروفة، فتتمثل في شعر معظم الشعراء على اختلاف ديارهم وقبائلهم، وكان جلهم من شعراء المديح، المتقربين إلى أمراء الدولة، فكانت مثابتهم " دمشق " عاصمة الخلافة الأموية، حيث يجدون في قصور الخلفاء والأمراء ما يؤملون من الغنى والعطاء.

هذه العوامل كلها كانت تدعو شعراء هذا العصر إلى تجويد القول وتهذيبه، وهناك باعث آخر ربما لا يقل خطراً عن تلك، ذلك هو نهضة البصرة والكوفة بعلوم النحو واللغة والرواية، وتكاثر أئمة العربية، وازدحام حلقاتها في المصرين بالمتعلمين، وشيوع النقد لخير ما يقال من شعر كبار الشعراء،

فحفزهم ذلك إلى التجويد وتجنب الخطأ، وسنزيد ذلك توضيحاً وشرحاً فيما يأتي :

حافظ الشعر في هذا العصر على أكثر خصائصه السابقة : من حيث رصانة اللفظ وجزالة التعبير، واستعمال الألفاظ الغربية في الموضوعات التي تناسبها، كأوصاف البادية وحيوانها، والصيد، وبعض المديح والفخر واستهلال القصيدة بالنسيب وذكر الديار، واشتمالها على عدة أغراض.

ولكنه – ومع ذلك- تأثر بأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي في انتحاء السهولة والوضوح، وظهر أثره في شعر الحواضر أقوى منه في شعر البوادي وأوضح، وغدا الكثير من شعراء الحضر يستعمل في شعره الألفاظ الإسلامية التي استعملها القرآن، والتراكب والمجازات النبوية، إذ علموا أن البلاغة ليست في غريب اللفظ وحوشيِّه وغموض المعنى وخفائه، بل بسهولة العبارة وانسجام اللفظ ووضح القصد.

اما شعر البادية فقد ظلت المسحة البدوية غالبة عليه، ويكثر التوعر والاغراب فيه في وصف الحيوان ومواضع البادية والطَّرد [1]، وشيء من الفخر والحماسة، وتجد صورة ذلك في شعر الفرزدق وذي الرمَّة والراعي النميرى والعجاج ورؤبة وأمثالهم، ويتجه إلى الرقة والسهولة في الغزل والنسيب كما في شعر جميل بثينة وكثير عزة وقيس ليلى وابن الطَّثرية والصمَّة بن عبدالله القشيري وابن الدُّمينة وأضرابهم.

(1) الطرد " بفتحتين" ما يقال في الصيد وكلابه وحيوانه.

وكان شعر هذا العصر – في الغالب- أكثر مراعاة للربط والصلة بين أبيات القصيدة من سابقة.

اعتمد الشعر في هذا العصر في أكثر معانيه وأخيلته على معاني الشعر في العصر السابق وأخيلته، ولكنه اختلف عنه في مراعاة التسلسل بين معاني القصيدة وترتيب أفكاره، وتقريبها إلى الأذهان، ثم ما جلاه من صور وأخيلة استمدها من الحضارة الجدية والحياة المتطورة، وأهما المعاني الإسلامية التي جاء بها الكتاب والسنة، والصور والأخيلة التي أفادها الشعراء من مخالطتهم لأمم شتى كانوا عنها في معزل من قبل، وما اقتبسوه من حضارتها ورسومها، أما شعراء البادية الذين ظلوا على عزلتهم في بواديهم وديارهم،أو كان لهم خلاط قليل بغيرهم فقد كانت هذه المؤثرات ضعيفة فيهم، غير واضحة في شعرهم [1].

(1) الأساس في تاريخ الأدب العربي، محمد بهجة الأثري ومصطفى جواد وكمال إبراهيم، مطبعة الشركة الإسلامية للطباعة ولنشر- لبنان 1957، ص215- 218.

أثر الإسلام في الشعر الاموي

كان للحياة الإسلامية في هذا العصر تأثير في اللغة يمكن إجماله بما يأتي:

1- انتشار لغة العرب خارج بلادها: خرج العرب من جزيرتهم بالفتوح الإسلامية، فخرجت معهم لغتهم،تسير مع الجنود الفاتحة، وتنتقل مع القبائل النازحة، ولما كانت هي لسان الدين ولغة القرآن، وحفز ذلك غير العرب من المسلمين إلى أن يأخذوا أنفسهم بتعلمها، لتفهم الشريعة، وأداء شعائرها، فبعدما كانت قبل الإسلام محصورة ببيأة العرب خاصة، انتقلت الفتوح إلى كثير من أجزاء المعمورة، وقد كان هذا —ولا ريب- فوزاً للعربية مبيناً، لم تظفر به لغة من لغات الدنيا، فان جميع الأمم الفاتحة في التاريخ، زالت لغتها من البلاد التي فتحتها بزوال سلطانها، إلا العربية، فلم ينسلخ ظلها بزوال سلطان أهلها، بل بقيت بعدهم ماثلة في الثقافة والآداب والتشريع ولغة الحديث، أو بقي لها آثار راسخة في اللغات المحلية، ولم تستطع الأيام أن تعفّى عليها.

2- وسع اللغة : اتسعت مادة العربية اتساعاً كبيراً بعد الفتوح الإسلامية، ذلك لأنها أصبحت في كل بلد حلّت به لغة الحكومة التي بها المكاتبات ولسان العامة الذي به التحادث، فاقتضى ذلك من العرب ألفاظاً ومصطلحات جديدة، ما لبثوا أن أوجدوها بالتعريب [1] والاشتقاق [2]

(1) التعريب: نقل اللفظة الأعجمية إلى العربية، وتغييرها بما يلائم مخارج النطق العربية والصيغة العربية.

(2) الاشتقاق : أخذ كملة من أخرى ووضعها لمسمى لما بينهما من اشتراك في المعنى والدلالة.

والتوسع في المجاز [1]، كألفاظ المنجنيق والعرَّادة، والشواتي والصوائف والثغور والعواصم والأقاليم والقصبات والحكومة والسكة والتوقيع والوظيفة والدفاتر ودار الضرب، والطست والبلور والطبق والدولاب والميزان والفرسخ والسكر والطنبور وغيرها [2].

3- ظهور اللحن : وكما كان انتشار العربية في العالم داعى اتساع مادتها، فقد كان داعية ظهور اللحن فيها، وذلك أن هذه اللغة تتميز من غيرها من اللغات بالاعراب [3]، وكان العرب في بلادهم مطبوعين عليه. فلما خالطوا الأعاجم، واستوطنوا ديارهم، وصاهروهم، وعاملوهم، نشأت طبقة من أبناء العرب الهجناء [4] ومن الداخلين في الإسلام من الأعاجم وأبنائهم، لم تستطع أن تقيم ألسنتها على الفصحى، وعلى الاعراب منها خاصة، فنشأ اللحن.

وكان أول ظهوره في أعراب أواخر الكلم، لما في التقيد به من صعوبة على من فقد الطبع اللغوي الأصيل، ثم سرى هذا الفساد إلى العرب الخلص بالمخالطة والعدوى، فقل من سلم لسانه من اللحن.

---

(1) المجاز : استعمال اللفظ في غير ما وضع له في أصل اللغة بقرينة مانعة من إرادته .

(2) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة وهي معربة عن الفارسية من (جه نيك) . والعرادة : آلة أصغر من المنجنيق، الشواني : الغزوات في الشتاء، والصوائف : الغزوات صيفاً ، الثغور : البلاد في أطراف المملكة التي يخاف منها اقتحام العدو ، والعواصم : المدن الكبيرة في الداخل ،الوظيفة : ما يقدر لك في اليوم من طعام أو رزق ونحوه ،والعهد والشروط والتوظيف تعيين الوظيفة ، دار الضرب : أي دار سك النقود، والفرسخ : ثلاثة أميال أو أثنا عشر ألف ذراع .

(3) تغير أواخر الكلم بحسب مواقعها في الجملة.

(4) جمع هجين وهو من أبوه عربي وأمه غير عربية ، وعكسه المقرف وهو من أوبه أعجمي وأمه عربية.

وذلك ما دعا إلى وضع " علم النحو " ليقيم غير العربي لسانه على قانونه، ويرجع إليه العربي عند اختلال الملكة، ثم وضع الأعجام [1] في القرآن لوقاية الألسنة من اللحن فيه[2].

وظهرت الأفكار الإسلامية مثل العفو والمغفرة وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة والحلال والحرام ووافق هذا الشعر قصص غزيرة فيه البساطة والسذاجة واضحة وقدم احكم الرواة نسجها قال عروة بن حزام :

وانى لتعروني لذكراك رعشة

لها بين جلدي والعظام دبيب

فو الله لا أنساك ما هبت الصبا

وما أعقبتها في الرياح جنوب

كما عمت موجة واسعة من لتقوى والزهد في الدنيا ونعيمها المادي ومصدره الإسلام الذي دعا إلى رفض الدنيا والابتهال إلى الله وانتظار ما عنده من النعم الحق، يقول أبو الأسود الدؤلي :

وما طلب المعيشة بالتمني

ولكن الق دلوك في الدلاء

تجئك يملئها يوما فيوما

تجنك بحماة وقليل ماء

---

(1) هو تمييز الحروف المتشابهة بوضع النقط ، كالباء والثاء والتاء ، والظاء والصاد.

(2) الأساس ، ص212- 214.

شعراء السياسة

سلاح تشهره القبائل والأحزاب على لسان شعرائها ، ويبقى في المقدمة شعراء بني أمية ومنهم المتوكل الليثي وعبد الله بن همام السلولي حيث وردت قصائدهم ترثي معاوية عند موته وتؤيد مبايعة ليزيد للحكم وظل أبو العطاء السندي وفيا لبني أمية فقد رثاهم بعد سقوطهم عندما امتد به العمر إلى أيام المنصور فيقول

بيا ليت جور بني مروان عاد لنا

وان و إن عدل بني العباس في النار

إما الأخطل التغلبي فقد مدح خلفاء بني أمية وولاتهم وزعمائهم ويؤكد ان السلطة حق شرعي لهم والانقياد لهم واجب وأعدائهم خارجون عن العدالة الإلهية وقد قدم نصائح للأمويين من خلال شعره :

بني أمية قد ناضلت دونكم

أبناء قوم هم أووا وهم نصروا

أفحمت عنكم بني النجار قد علمت

عليا معد وكانوا طالما هددوا

حتى استكانوا وهم مني على مضض

والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

وقد كان الشعراء يشاركون الخلفاء أحكامهم كما تدلنا حادثة دخول الأخطل على عبد الملك بن مروان وتأليبه على زفر الكلابي واقتناع الخليفة بكلام الشاعر.

أما الشعراء العلويون او الطالبيون او الشيعة فقد مضى بعد مقتل الإمام علي(ع)يؤمنون بان أبناءه وأحفاده هم أهل الكوفة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون وظلوا يبكون ويندبون بدموع لا تجف وظل مستمرا لمقتل الإمام الحسين(ع) ثم زيد بن علي ثم ابنه يحيى على هذا الشعر غلبة العاطفة الدينية على شعرهم عموما ، ويظهر الكميت ابن زيد ألأسدي شاعرا مبرزا اظهر حبه للهاشميين وقد أطلق على إشعاره في آل البيت مصطلح (الهاشميات)ومنها :

طربت وما شوقا إلى البيض اطرب

ولا لعباً و لا لعبا مني وذو الشيب يلعب

ولم تلهني دار ولا رسم منزل

ولم تطربني بنان مخضب

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى

وخير بني حواء والخير يطلب

بني هاشم رهط النبي فأنني

بهم ولهم أرضى مرارا واغضب

أما الخوارج فهم فرق متعددة منها الازارقة والصفرية والنجدات والاباضية ظلوا يحاربون الأمويين طوال العصر وكلما قضوا على جماعة ظهرت آخرى تطلب الاستشهاد في سبيل عقيدتها التي تنص على ضرورة ان

يتولى الأمة خير المسلمين ورعا وتقوى ولو كان عبدا حبشياً ، والعجيب ان الموت أمنية لكل خارجي والفوز بالاستشهاد رجاء، والملاحظ ان شعر الخوارج يشبه بعضه بعضا من حيث القضايا المعالجة والمعاني المطروحة وحتى في بعض التراكيب اللغوية ومن شعرائهم يزيد بن جبناء وعمران بن حطان و الطرماح الذي نراه يقول شعرا ليكون مرآة أفكاره :

وانى لمقتاد جوادي وقاذف

به وبنفسي العام إحدى المقاذف

لاكسب مالاً اوول إلى غنى

من الله يكفيني عدات الخلائف

فيارب ان حانت وفاتي فلا تكن

على شرجع يعلى بخضر المطارف

والزبيريون جماعة عبد الله بن الزبير بن العوام وأخيه مصعب اللذين اتخذوا من مقتل الحسين (ع)أداة للشنيع على يزيد وجماعته وانتهت الحركة في مكة والبصرة على يد الولاة الأمويين وكانت تؤمن بان الخلافة حق لكل قرشي، ومن شعرائهم عبد الله بن قيس الرقيات الذي اعتنق عقيدتهم اعتناقاً مخلصاً :

حبذا العيش حين قومي جميع

لم تفرق أمورها الأهواء

قبل ان تطمع القبائل في مل(م)

ك قريش وتشمت الأعداء

أيها المشتهي فناء قريش

بيد الله عمرها والفناء

ان تودع من البلاد قريش

لايمكن بعدهم لحي بقاء

وعلى ضوء قسوة الحجاج والي العراق ظهر عبد الرحمن بن الأشعث سليل ملوك كندة وشريف مكة ثائراً لإحساسه بشرفه وإعجاباً بنفسه وقام أعشى همدان شاعرا محرضا على القتال مع بن الأشعث :

يا أيها الإله وعزة ابن محمد

وجدوك ملك قبل آل ثمود

كم من أب لك كان يعقد تاجه

بجبين أبلج مقول صنديد

ما قصرت بك ان تنال مدى العلا أخلاق مكرمة وارث جدود

واشتهر في هذا العصر بنو المهلب بن أبي صفرة الذين كانوا إلى جنب آل أمية وحاربوا عنهم الازارقة ولكرمهم ومدحهم وسخائهم مدحهم الشعراء ورثوهم وهو في صورة من السياسي، قال نها بن توسعة :

إلا ذهب الغزو المقرب للغنى

ومات الندى والحزم بعد المهلب

وكان شعراء بني امية أكثر عدداً وابعد صوتاً لأن الخلفاء الأمويين بسطوا لهم الأكف وآسبغوا عليهم النعم، وساعدهم على البذل ما في بيت المال

من فيءٍ[1] وفرٍ، فأقبلت عليهم صوائف الشعراء تمدحهم وتؤيد حقّهم بالخلافة غير هيّابة جانب خصومهم، وأما شعراء المعارضة فكانت أصواتهم تقوى بقوّة أحزابهم، وتضعف بضعفها، فعبيد الله بن قيس الرّقيّات القرشي كان زُبيرياً يكره الأمويين ويهجوهم، فلما قُتل مصعب بن الزبير وأخوه عبدالله، انحاز إلى عبد الملك بن مروان فمدحه خائفاً، فأمنه على حياته، والفرزدق كان يتشيّع لعلي وأبناء عليّ، ولكنه لم يستنكف من مدح خلفاء بني أمية وعمالهم رهبة منهم، أو رغبة في نوالهم. وكذلك فعل الكميت لما أمر هشام عبد الملك بقطع لسانه من أجل قصيدة رثى بها زيد بن علي[2]. والنعمان بن بشير كان أنصارياً من الخزرج، ولكنه ساير معاوية، فشهد معه واقعة صفّين، وقد اجتذبه معاوية بسخائه ودهائه، ولما أفضت الخلافة إلى مروان بن الحكم كان النعمان على حمص فدعا أهلها إلى مبايعة عبدالله بن الزبير فلم يجيبوه، فهرب منهم، فتبعوه وأدركوه وقتلوه.

والنعمان على مسايرته معاوية وآله كان شديد التعصب للأنصار، ولمّا دفع يزيد بن معاوية الأخطل لهجاء الأنصار فهجاهم بقوله:

ذَهَبَتْ قُرَيْشٌ بالمَكارِمِ كلّها، واللّؤمُ تحتَ عَمائِمِ الأنصَارِ

دخل النعمان على معاوية غضبان، وأنشأ قصيدته التي يقول فيها:

---

(1) الفيء: الخراج والغنيمة، أو ما ورده الله على المسلمين من أموال من خالفهم في الدين بلا قتال إما بالجلاء او المصالحة على جزية أو غيرها.

(2) هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي العاشر ملك من سنة 723-743 م و 105-125هـ، وفي أيامه خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب طالباً الخلافة لنفسه فبايعه أهل الكوفة وكان عاملها من قبل هشام بن عمر الثقفي فجمع العسكر وقاتل زيداً فانتصر عليه وقتل زيد بسهم أصابه في جبهته.

مُعاوِيَ إلاّ تُعْطِنا الحَقّ، تَعْتَرِفْ   لِحى الأزدِ مشدوداً عليها العَمائِمُ

ثم حسر عمامته، وقال : " يا أمير المؤمنين، أترى لؤماً ؟ " قال : " لا ، بل أرى كرماً وخيراً [1]"، فماذا ؟ " قال : " زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائم الأنصار. " قال : " أو فَعل ذلك ؟ " قال : " نعم. " قال : " لك لسانه. " فاستجار الأخطل بيزيد، فمنعه منه، وأرضى النعمان حتى كفّ عنه.

ولعل من الخير أن نعرض لقصيدة النعمان بن بشير في الدفاع عن الأنصار فإنها مظهر قوي لاستيقاظ العصبية في الإسلام، واشتداد الخصومة بين المضرية واليمانية.

يستهل النعمان قصيدته متوعداً معاوية، ذاكراً هجاء الأخطل للأنصار، ولكنه لا يُعنى بالردّ على شاعر تغلب، بل يجعل همته في تهديد الخليفة الأموي، ثم يفتخر عليه ويذكّره يوم بدر وما فعلت الأنصار بقريش، ثم يختم ضارباً على الوتر الحساس الذي يُرجف وقعهُ قبل السياسة الأموية، وهو مصير الخلافة إلى بني هاشم لأنهم أحق بها وأولى.

فقصيدة النعمان بن بشير تظهر لنا سياسة الأنصار ورأيهم في الخلافة وسخطهم على الأمويين بعد أن استأثروا بها، وتظهر لنا خصوصاً سياسة النعمان في مصانعته معاوية وأبناء معاوية، وهي بما فيها من وعيد وتعبير وفخر وإنذار تمثل ألم الأنصار لإخفاقهم في الحياة السياسة بعد أن استبدت قريش بالخلافة والسلطان، فهم ساخطون عليها لا يستثنون إلا بني هاشم آل البيت. بيد أنهم يؤثرون من الهاشميين أبناء علي ويرونهم أحقّ من غيرهم بالخلافة

---

(1) الخير :الكرم والشرف الأصل.

لأنهم أسباط الرسول وأبناء عمه. والنعمان بن بشير على مسايرته الأمويين، لم يشذّ عن الأنصار في سياسته، بل كان يرى رأيهم، ولكنه يصانع معاوية رغبة في نواله :

أُصانِعُ فيها عبد شَمْسٍ، وإنّني   لتِلكَ التي في النَفسِ منّي أُكاتم

ولابدّ أن تُدهشك جرأة الشاعر على الخليفة، ومخاطبته إياه بتلك اللهجة الشديدة التي لا تليق بالملوك، ولا يسلم من يخاطبهم بها مهما عظم خطره. أجل، إن جرأة النعمان عجيبة غير مألوفة، ولكن أعجب منها حلم معاوية وأناته، بل سياسته ودهاؤه، فهو يعلم أن ملكه قائم على كره من الأنصار وغير الأنصار، ولا يستطيع تأييده إلا بالحكمة والحلم وحسن تصريف الأمور، فبهذه الصفات السامية تمكن معاوية من تأسيس عرش بني أُميّة وتوطيده[1]

فإذا اتجهنا إلى حزب الشيعة وشعرائه وجدنا أنفسنا أمام ثلاثة شعراء هم أهم من عضد هذا الحزب بشعره من الشعراء، أولهم أيمن بن خريم الأسدي، ثم كثير بن عبدالله المشهور بكثير عزة، وأخيراً الكميت بن زيد الأسدي، فأما أيمن بن خريم فيبدو أن اتجاهه نحو التشيع بدأ منذ حرب صفين حيث ترجح أنه قد شارك فيها بجانب الإمام علي ﷺ، ذلك لأنه تكتم عن اختيار الناس لأبي موسى الأشعري، وفرضهم إياه على الإمام علي فقال:

لو كان للقوم رأيٌ يهتدون به   بعد القضاء رموكم بابن عبّاس

(1) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، بطرس البستاني (دار الجيل- بيروت 1979)، ص312- 314.

لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن لم يدر ما ضربُ أخماسِ[1]

وعل الرغم من أن الأخبار التي وردت عن أيمن تؤكد تشيعه لآل البيت فإن هذا التشيع كان محدوداً بفترة زمنية معينة، فقد لاحظنا من دراستنا له أنه لم يقل فيهم سوى الأبيات من قصيدته التي مطلعها (نهاركم مكابده وصوم)[2].

ويخيل إلينا أن تشيع أيمن كان مرتبطاً بحياة عليّ وحياة ابنيه الحسن والحسين، فلما مضى هؤلاء تخلى أيمن عن تشيعه أو كتمه في صدره واتجه إلى بني مروان يمدحهم وينال عطاياهم، غير أنه مع ذلك كان حريصاً الحرص كله على أن لا يشترك مع الأمويين في قتال، فقد أخبر الرواة بأن عبد الملك بن مروان قال لأيمن" إنَّ أباك كانت له صحبة ولعمك كذلك فخذ هذا المال فقاتل ابن الزبير، فأبى أيمن وقال:

ولستُ بقاتلٍ رجلاً يُصلّي على سلطان آخر من قريش
له سلطانهُ وعليَّ وزري معاذ الله من سفهٍ وطيشٍ
أأقتل مسلماً وأعيش حيناً فليس بنافعي ما عشت عيشي[3]

---

(1) الأخبار الطوال للدينوري ص197 ، وفي اللسان لابن منظور ج7 ص370 نسبها لأبيه خريم بن فاتك وبين البيتين بيت ثالث

لله درُّ أبيه أمَّا رجل ما مثله في فعال القول في الناس

وربما كان هذا وهماً منه لأن أبا الفرج نسبها ايضاً لايمن بن خريم انظر ترجمة ايمن في أغاني الساسي ج20 ص6 وما بعدها.

(2) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج2 ص454 والعقد الفريد ج4 ص401.

(3) المصدران السابقان الأول ص454 والثاني 402 ، وفي الاصابة لابن حجر العسقلاني ج1 ص93 إنها حدثت مع مروان بن الحكم.

وكان أيمن واضحاً في علاقته مع بني مروان، فهو يتصل بهم ويمدحهم لينال عطاياهم ومنحهم، فالعطاء هو الصلة التي تربطهم به أو تربطه بهم، نجد ذلك واضحاً في قوله:

إن للفتنة ميطاً بيّناً　　فرويد الميل منها تعتدل

فإذا كان عطاءٌ فأتهم　　وإذا كان قتالٌ فاعتزل

إنما يسعرها جهالها　　حطبُ النارِ فدعها تشتعل[1]

وأما كثير بن عبد الرحمن فيحدثنا أبو الفرج أنه كان غالياً في التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ [2]، وكان من أتباع محمد بن الحنفية القائلين بعدم موته وبرجعته، وهو القائل فيه:

ألا قُل للوصيِّ فدتك نفسي　　أطلت بذلك الجبل المقاما

أضرَّ بمعشرٍ والوك منا　　وسموك الخليفة والاماما

وعادوا فيك أهل الله طُراً　　مقامك عنهم ستين عاماً[3]

وكان في تشيعه هذا يرى أن الأئمة أربعة فقط هم علي وبنوه الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، وقد ذكر ذلك بوضوح في شعره حين قال:

ألا إنَّ الأئمة من قريش　　ولاة الحقِّ أربعةٌ سواءُ

عليٌّ والثلاثة من بنيه　　هم الأسباط ليس بهم خفاءُ

فسبط سبطُ إيمان وبرٌّ　　وسبط غيبته كربلاءُ

(1) الشعر والشعراء ج2 ص454 ، والميط الميل والجور.

(2) تنظر أبياته في الباب الاول.

(3) الأغاني ج8 ص26.

وسبط لا تراه العين حتى يقود الخيل يتبعها اللواءُ
تغيب لا يرى عنهم زماناً برضوى عنده عسلٌ وماء[1]

وإذا كان هذا هو مذهبه في الإمامية فقد كان من المنكرين على الخلفاء الراشدين الثلاثة خلافتهم ويبرأ منه كما يبرأ منهم الخوارج الذين يقولون بعدم أحقية أحد بالخلافة والإمامة، يقول كثير:

برئتُ إلى الإله من ابن أروى ومن قول الخوارج أجمعينا
ومن عمرٍ برئت ومن عتيقٍ غداة دُعي أمير المؤمنينا[2]

وكان كثير مخلصاً في تبعيته لمحمد بن الحنفية، فعندما سجن عبدالله بن الزبير محمد بن الحنفية ومن معه من بني هاشم في سجن عارم بالحجاز لم يتردد كثير في أن يذكر ذلك في شعره، مشيداً بابن الحنفية وما يلاقيه في سجنه يقول:

من ير هذا الشيخ بالخيف من منًى من الناس يعلمْ أنه غير ظالم
سميُّ النبيِّ المصطفى وابن عمه وفكاكُ أغلال ونفاع غارم
أبيٌّ فلا يشري هدىً بضلالة ولا يتقي في الله لومة لائم

وفيها يقول لعبد الله بن الزبير:

تُخبر من لاقيت أنك عائذٌ بل العائذُ الملم في سجن عارم[3]

---

(1) المصدر نفسه ج8 ص30.

(2) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج1 ص410 وأراد بابن أروى عثمان بن عفان وبعتيق أبا بكر.

(3) الاغاني ج8 ص31.

وإذا كنا قد لاحظنا على أيمن تخليه عن تشيعه أو كتمه في أيام بني مروان فإن ما وصل إلينا من شعر كثير يدل على أنه كان وفياً لمذهبه الشيعي برغم اتصاله ببني مروان، يؤكد ذلك ما قاله من مدح في عمر بن عبد العزيز وذلك لما رأى موقف عمر من آل البيت، فقد منع عماله من سب آل البيت على المنابر فقال كثير يمدحه:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف بريـاً ولم تقبل إشارة مجرم

وصدقت بالفعل المقال مع الذي أتيت فأمسى راضياً كل مسلم[1]

على أن التشيع الذي كان تأثير كبير في حياة صاحبه وشعره هو تشيع الكميت بن زيد الأسدي، فالكميت هو الشاعر الوحيد في هذا الطور الذي ترك شعره آثاراً ضخمة في مسار الحياة السياسية والعقائدية، ولقد ولد الكميت في سنة ستين من الهجرة في آخر عهد معاوية، وقتل في خلافة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فكأن القدر أراد له أن يعيش ويموت في ظل الدولة التي قضى عمره يتمنى زوالها ويندد بسياستها، وكان منشؤه بالكوفة حيث بدأ حياته العملية يعلم الصبيان في مسجدها [2]، وكانت الكوفة في زمنه موطن الشيعة دون منازع، ويبدو ان الكميت نشأ في أسرة شيعية فقد كان والد زوجة عبد الواحد بن قيس متشيعاً وكانت زوجته المسماة بحبى ممن يتشيع، ومن ثم فإن تشيعه كان من اثر البيئة التي عاش فيها والأسرة التي ارتبط بها.

---

(1) الشعر والشعراء ج1 ص413.

(2) ينظر ترجمة الكميت في الأغاني ط ساسي ج12 ص124 وما بعدها والشعر والشعراء ج2 ص485 وما بعدها.

ويظهر تشيع الكميت لآل البيت في هاشمياته التي خلفها لنا، والتي كان قد نظمها وحقق فيها اتجاهاً سياسياً ودينياً جديداً، فإذا نظرنا فيما وصل إلينا من هذه الهاشميات وجدنا أن اتجاه تشيعه فيها يتمثل في ثلاثة جوانب : جانب ديني يتضح في إظهار عاطفته الدينية المفعمة بحب آل البيت والتمسك بهم لآخرته، وجانب سياسي يتضح في فكرة الحكم الذي ينبغي أن يكون مقصوراً على آل البيت دون سواهم، وجانب ثوري يتضح في هجومه على حكام بني أمية وإظهار الفساد في سياستهم التي يسوسون بها الناس.

فأما الجانب الديني فتعبر عنه تلك الأبيات المنثورة في الهاشميات والتي تدل على عاطفة دينية عميقة ملأت جوانح الكميت بحب رسول الله وعشيرته الأقربين من آل البيت مقل قوله:

إليكم ذوي آل النبي تطلّعت نوازع من قلبي ظماء وألبب[1]

ومثل قوله:

فهم شيعتي وقسمي من الأمـ ـة حسبي من سائر الأقسام

إن أمت لا أمت ونفسي نفسا من الشر في عمي أو تعام[2]

فهو يحدد في هذه الأمثلة مدى ارتباطه الديني بآل النبي، فهو يتطلع إليهم بقلبه وعقله، لا يريد أن يعدل بهم آخرين لأنه إنما يريدهم لآخرته لا لدنياه، وقد ظل هذا الشعور ملازماً له في كل قول يتصل بآل البيت، ومن ذلك ما روي عنه أنه انشد جعفر الصادق هاشميته (ألا هل عمٍ في رأيه متأمل)،

(1) شرح الهاشميات لمحمد محمود الرافعي ط التمدن الصناعية القاهرة ص39.

(2) المصدر نفسه ص34.

فأثابه جعفر بألف دينار وكسوة فقال الكميت: " والله ما أحببتكم لدنيا، ولو أردتها لأتيت من هي في يديه، ولكني أحببتكم للآخرة، فأما الثياب التي أصابت أجسادكم فإني أقبلها لبركتها وأما المال فلا أقبله" [1].

وأما الجانب السياسي القائم على فكرة قصر الحكم على آل البيت فنراه يسير فيه على نهجين : الأول شرعية الوراثة للإمامة من قبل آل البيت والثاني: الشروط التي ينبغي أن تتوافر في الإمام والتي يتصف بها آل البيت خلقاً وعملاً، وهو في النهج الأول يركز على شرعية وراثتهم للحكم وأحقيتهم به مثل قوله في الهاشمية البائية:

وجدنا لكم في (آل حاميم) آية   تأولها منا تقي ومعرب
وفي غيرها آيا وآيا تتابعت   لكم نصب لذي الشك منصب
بحقكم أمست قريش تقودنا   وبالفذ منا والرديفين تركب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا   وما ورثتهم ذاك أمٌ ولا أب
يرون لهم حقا على الناس واجباً   سفاهاً وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث ابن آمنة الذي   بها دان شرقيٌ لكم ومغرب[2]

وهو يحدد أن لو كان أمر الخلافة كما قالوا في شأن وراثة النبي لاشتركت فيها كل القبائل، ولما كانت مقصورة على قريش وحدها، ولكان للأنصار فيها نصيب، لما لهم في الإسلام من سابق تأييد وجهاد، فهم أولى بها من أية قبيلة أخرى، وهي إذا لم تكن تصلح لقوم سواهم فإن بني

---

(1) خزانة الادب للبغدادي ج1 ص69.

(2) شرح الهاشميات ص21 وما يليها.

هاشم أحق بها وأقرب الناس إليها، لقرابتهم من رسول الله ﷺ ولأنهم ورثته الحقيقيون يقول الكميت في البائية ذاتها:

يقولــون لم يــورث ولــولا تراثــه   لقد شركت فيك بكيل ومرحب
وعـكّ ولخـم والسـكون وحمـير   وكنـدة والحيـان بكـر وتغلـب
ولا نتشلت عضـوين فيهـا يحـابر   وكـان لعبـد القيس عضو مؤرب
ولا كانـت الأنصـار فيهـا أدلـة   ولا غيبـت عنهـا إذ النـاس غيـب
هـم شـهدوا بـدراً وخيـبر بعـدها   ويـوم حـنين والـدماء تصـبب
فـإن هـي لم تصـلح لقـومٍ سـواهم   فـإن ذوي القربـى أحـق وأقـرب[1]

ونراه في موضع آخر يشير إلى ما يروي عن النبي ﷺ من قوله عن عليّ: "اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله"، وقوله: "من كنت مولاه فعلي مولاه"، فهو ينطلق من هذه الأقوال لإقرار أحقية علي بولاية الأمر، ويعيب على الصحابة الأوائل أنهم حولوا الخلافة من علي إلى غيره، وإن كان لا يصل إلى درجة لعنهم كما يفعل بعض فرق الشيعة الأخرى قول الكميت:

وأصـفاه الـنبي عـن اختيـار   بمـا أعـي الرفـوض لـه المـذيعا
ويـوم الـدوح دوح غـدير خـم   أبـان لـه الولايـة لـو أطيعـا
ولكـن الرجـال تبايعوهـا   فلـم أر مثلـها أبـداً مضـيعا
ولم أبلـغ بهـا لعنـاً ولكـن   أسـاء بـذاك أولهـم صـنيعا[1]

---

(1) المصدر نفسه ص22.

والكميت في هذا النهج يبدو مذهبياً عقائدياً أكثر منه شاعراً سياسياً لأن منهجه فيه يقوم على إقرار الحق لآل البيت وإقامة الحجج والبراهين على ذلك، وقد لاحظ ذلك الدكتور شوقي ضيف حين قال بعد مناقشته لهذا الجانب: " وهكذا لم يعد الشعر عند الكميت يعبر عن الشعور فحسب بل أصبح يعبر عن الفكر وأصبح ينتفع بكل ما وصل إليه العقل العربي في هذا العصر من قدرة على الجدل والإقناع " (2).

ويعتبر الكميت في مذهبه الشيعي زيدياً، ونضيف هنا أنه بناءً على هذا المذهب القائل بأن تكون الامامة في أبناء فاطمة دون التقيد بأبناء الحسن أو الحسين وبجواز أن يقوم إمامان في آن واحد نرى الكميت في أمثلته السابقة التي عرضناها لا يتكلم على إمام بعينه كما كان يفعل كثير في شعره الشيعي الذي ينادي فيه بإمامة محمد بن الحنفية، وإنما يتحدث عن آل البيت بصفة عامة، كأنما يريد أن يوضح أن الهدف الأساسي من مذهبه هو ان يكون الإمام من آل البيت ما دام قد توفرت فيه الشروط التي تمثل النهج الثاني في اتجاهه السياسي الذي عبر عنه في شعره.

وفي هذا النهج الثاني نرى الكميت حريصاً على توضيح الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الإمام الذي يحكم، ولكنه لا يدلي بها صراحة وإنما ينثرها من خلال مديحه لآل البيت حيث يؤكد في كل مرة أنهم الوحيدون المتصفون بها.

---

(1) شرح الهاشميات ص41 وما يليها.

(2) التطور والتجديد في الشعر الأموي ص277.

وإذا نظرنا في هذه الشروط وجدنا أنها تتلخص في صفات التقوى والزهد والعلم بالكتاب والسنة وإتباع هدي الشريعة والمساواة والعدل بين الناس والإصابة في الرأي والقول، والشجاعة والسخاء والنجدة، ونجد ذلك واضحاً في هاشميته الميمية حيث يقول فيها:

بل هواي الذي أجن وأبدي   لبني هاشم فروع الأنام
للقريبين من ندىً والبعيديـ   ـن من الجور في عرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ النا   س ومرسى قواعد الإسلام
والحماة الكفاة في الحرب إن لـ   ـف ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النا   س مأوى حواضن الأيتام
والولاة الكفاة للأمر إن   طرّق يتناً بمجهضٍ أو تمام[1]

ونجد بعض ذلك في لاميته يقول فيها:

إلى الهاشميين البهاليل إنهم   لخائفنا الراجي ملاذ ومؤئل
إلى أي عدلٍ أو لأية سيرة   سواهم يؤم الظاعن المترحل
وفيهم نجوم الناس المهتدي بهم   إذا الليل أمسى وهو بالليل أليل[2]

وأما الجانب الثوري المتمثل في هجومه على الأمويين وإظهار الفساد في سياستهم فنجده أيضاً مبثوثاً في الهاشميات، وهو في حقيقته ثورة تتضح في

---

(1) شرح الهاشميات ص23.

(2) المصدر نفسه ص72.

أمرين: أحدهما انتقاده لسياستهم المالية والآخر تبيان جورهم في الحكم وعدم مساواتهم بين الناس.

ولقد كانت سياسة بني أمية قائمة على حرمان آل البيت وشيعتهم بل حرمان جميع خصومهم من العطاء والفيء، وكان الكميت يرى إلى أي حد أثرت هذه السياسة في بني هاشم حتى جعلت حالهم المادية في رقة وضعف مع ما لهم من مركز ديني كبير يتمتعون به شيعتهم، ولعل إحساس الكميت بهذا هو الذي كان يدفعه دائماً إلى أن يرفض كل عطاء أو هبة مالية تقدم إليه من قبل بني هاشم، مثلما رأينا في الخبر الذي أوردناه عن جعفر الصادق حين أعطاه ألف دينار فرفضها الكميت، ومثل الخبر أورده أبو الفرج عن فاطمة بنت الحسين حين دخل عليها الكميت للتحية فأعطته ثلاثين ديناراً فهملت عيناه ثم قال لا والله لا أقبلها إني لم أحبكم للدنيا[1].

ولذا فلا عجب حين نرى الكميت يهاجم بني أمية ويثور عليهم في سياستهم المالية التي تثري أقواماً وتفتقر آخرين يقول:

فيا ساسةً هاتوا لنا من حديثكم ... ففيكم لعمري ذو أفانين مقول

أأهل كتاب نحن فيه وأنتم ... على الحق نقضي بالكتاب ونعدل

فكيف ومن أنى واذ نحن خلفةٌ ... فريقان شتى تسمنون ونهزل

ويقول أيضاً :

تحلُّ دماء المسلمين لديهم ... ويحرم طلع النخلة المتهدل

(1) الأغاني ج15 ص118.

وليس لنا في الفيء حظ لديهم   وليس لنا في رحلة الناس أرحل[1]

ونراه في قصيدة أخرى يهاجم الأمويين في هذا الجانب بعنف واضح حتى لكأننا نحس بصوته يعلو الثورة الهادرة يقول:

فقل لبني أمية حيث حلوا   وإن خفت المهند والقطيعا

ألا أفٍ لدهر كنتُ فيه   هواناً طائعاً لكم مطيعا

أجاع الله من اشبعتموه   وأشبع الله من بجوركم أُجيعا[2]

أما اظهار حوركم وسوء حكمهم بين الناس فإن الكميت يتناول ذلك ليوضح الفرق بين بني هاشم وحرصهم على المساواة بين الناس وجور بني أمية وظلمهم، ولعل قصيدته اللامية التي أوردنا منها أبياتاً قبل قليل تمثل هذا الجانب خير تمثيل، نرجح أنه نظمها قبيل خروج الإمام زيد بن علي على الخلافة الأموية، فهي تبدو كأنها نظمت أساساً لهذا الغرض، لأنها تختلف عن بقية القصائد الأخرى حتى في مطلعها الذي بدأ بالهجوم العنيف على بني أمية، ومن اجل ذلك نرى خالد بن عبدالله القسري يختارها من دون الهاشميات الأخرى ويرسلها إلى هشام بن عبد الملك بغية آن يوقع بالكميت[3]، يقول الكميت في مطلع هذه القصيدة:

ألا هل عمٍ في رأيه متأملُ   وهل مدبر بعد الإساءة مقبلُ

وهل أمة مستيقظون لرشدهم   ويكشف عنه النعسة المتأمل

---

(1) شرح الهاشميات ص70.

(2) شرح الهاشميات . ص82.

(3) الأغاني ج15 ص114.

فقد طال هذا النوم واستخرج مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعُطلت الأحكام حتى كأننا على ملةٍ غير التي نتنحَّلُ
كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل[1]

فأنت ترى أنها دعوة صريحة إلى الثورة وإيقاظ النفوس وتحريك لها ضد الحكم الأموي الذي طالت مدته فأخرج طول المدة ما في نفوس حكامه من جور وطغيان، حيث تعطلت أحكام الشريعة حتى كأن الناس على ملة غير الإسلام، وكيف لا وهؤلاء الحكام يتكلمون كلام الأنبياء ويفعلون أفعال أهل الجاهلية.

وكان الكميت يهدف بثورته هذه إلى حث الناس إلى إتباع الرضى من آل البيت من جهة وإظهار السوء في حكم بني أمية من جهة أخرى يبدو ذلك من قصائده التي يعقد فيها مقارنة بين الهاشميين والأمويين، فبينما يسبغ على بني هاشم الصفات التي تؤهلهم للحكم يجرد الأمويين من هذه الصفات ولما كانت أهم هذه الصفات هي العدل والمساواة فإننا نراه يقول في نعرض إشارته ببني هاشم:

ساسة لا كمن يرى النا س سواء ورعية الأغنام
لا كعبد المليك أو كوليدٍ أو سليمان بعد أو كهشام
من يمت لا يمت فقيداً ومن يحي فلاذو إلٍّ ولا ذو ذمام
رأيه فيهم كرأي ذوي الثلّة في الثائجات جنح الظلام[2]

---

(1) شرح الهاشميات ص66.

(2) المصدر نفسه ص46، والثلة الجماعة من الغنم، والثائجات الصائحات.

ولكن إذا كان الكميت قد زرع في نفوس الشيعة بهذا الشعر وأمثاله فإن ثورته هو لم تكن ثورة عملية، شأنها شأن شيعة آل البيت في الكوفة، يتخلون عن أئمتهم في اللحظات الحرجة من الثورة وقد فعل الكميت ذلك مع زيد بن علي حين خرج على الأمويين، إذ تخبر الرواة أن زيداً لما خرج كتب إلى الكميت يطلب منه الخروج ويقول له: ألست القائل:

ما أُبالي إذا حفظت أبا القا   سم فيكم ملامة اللُّوام

فكتب إليه الكميت متعللاً:

تجود لكم نفسي بما دون وثبة   تظل لها الغربان حولي تحجل[1]

فهو يتخاذل عن نصرة زيد مثلما تخاذل الآلاف من شيعة الكوفة، ولكن ما أن فشلت الثورة وصلب زيد بعد قتله حتى تحركت النزعة الدينية التي رأيناها من قبل لتفيض أسفاً وحسرة على هذا التخاذل يقول الكميت:

دعاني ابن الرسول فلم أجبه   ألهفي لهف للقلب الفروق

حذار منية لابد منها   وهل دون المنية من طريق[2]

غير أن الكميت في آخر حياته وجد نفسه مضطراً بعد آن هرب من سجن خالد بن عبدالله القسري إلى أن يتجه صوب الشام ليتصل بالأمويين ويمدحهم، وينال عفوهم بعد كل ما قاله من شعر ضد حكمهم، بل يأمن بالعراق حيث عزل عدوه خالد بن عبدالله القسري، ومع ذلك فقد كانت نهايته أليمة حقاً، لأن الموت الذي خافه في ساحة الوغي مع إمامه زيد قد جاءه في قصر الإمارة بالكوفة حيث كان ينشد شعراً في يوسف بن عمر، ويعرض

---

(1) الأغاني ج15 ص121.

(2) شرح الهاشميات ص84.

بخالد بن عبدالله ناسياً أن الجند- الذين كانوا واقفين على رأس يوسف يمانية – يمانية متعصبون لخالد، حيث وضعوا ذباب سيوفهم في بطنه قائلين له: أتنشد الأمير، ولم تستأمره، فلم يزل دمه ينزف حتى مات[1]، وبذلك انطوت أضخم صفحات للشعر الشيعي في ذلك الطور.

وبجانب هؤلاء الشعراء الثلاثة أيمن وكثير والكميت كان هناك شعراء آخرون يمثلون حزب الشيعة أهمهم التوابون الذين ظهروا في الكوفة بعد مقتل الحسين بن علي في كربلاء، منهم عوف بن عبدالله بن الأحمر الأزدي الذي شهد صفين مع علي، فقد رثى الحسين بقصيدة طويلة حض فيها الشيعة على الطلب بدمه، فكانت هذه المرثية – كما يقول المرزباني- تخبأ أيام بني أمية، ولم تخرج إلا بعد ذلك، ومنها هذه الأبيات التي يشير فيها إلى يوم صفين وحربهم لمعاوية بن أبي سفيان، ويعيب على أهل الكوفة إشخاصهم الحسين وآله ثم خذلانهم لهم، ويتمنى لو أن شهد أمر الحسين لدافع عنه وأعمل سيفه في أعدائه يقول:

ونحن سمونا لابن هند بجحفل ... كرجل دباً يزجي إليه الدواهيا

فلما التقينا بين الضرب أينا ... بصفين كان الأضرع المتوانيا

ليبك حسينياً كلما ذر شارق ... وعند غسوق الليل من كان باكيا

لحا الله قوماً أشخصوهم وعردوا ... فلم ير يوم البأس منهم محاميا

فيا ليتني إذ كان كنت شهدته ... فضاربت عنه الشانئين الأعاديا

(1) الأغاني ج15 ص115 ، وخزانة الأدب للبغدادي ج1 ص71.

ودافعت عنه ما استطعت مجاهداً وأعملت سيفي فيهم وسنانيا[1]

لقد دارت في شعر هؤلاء التوابين معاني الندم والحسرة محاولين أن يحرضوا الشيعة على الأخذ بثأره وثأر من قتل معه، دافعين إياهم إلى محو عار التخاذل الذي وقع من توانيهم عن النصرة، وذلك مثل عبيد الله بن الحر الذي خرج إلى كربلاء حيث صرع الحسين ومن معه فاستغفر لهم ثم قال قصيدة جاء فيها:

ويا ندمي أن لا أكون نصرته ألا كل نفس لا تسدد نادمه

وإني – لأني لم أكن من حماته- لذو حسرة ما أن تفارق لازمه[2]

لقد عبر شعراء الشيعة عن كل المواقف التي عاشها آل البيت في صراعهم السياسي ضد حكم بني أمية، كما عبروا عن مذاهبهم التي قسمتهم إلى فرق مختلفة، ودلوا في شعرهم على عاطفة دينية مفعمة بالحب لآل البيت، ولكن هذه العاطفة وإن كانت مخلصة صادقة في صورتها التي بدت في شعرهم فإنها حين تعكس على الواقع لا تمثل سوى جانب نظري فحسب، وهذا ما عناه الدكتور يوسف خليف حين ناقش جانب الاخلاص عند الشيعة في عقيدتهم وانتهى إلى أنهم من الناحية النظرية "كانوا شيعة ربطوا حياتهم بعلي وبنيه وأقاموا مستقبلهم على أساس من هذه العقيدة، وعرف الناس عنهم ذلك، ولكن الجانب العملي من عقيدتهم لم يكن موافقاً لهذا الجانب

(1) معجم الشعراء للمرزباني ص126 وما قبلها.

(2) تاريخ الطبري ج4 ص360.

النظري، فلقد كانت تصرفاتهم مع أئمتهم موسومة كلها بطابع التقلب والتذبذب والتخاذل"[1].

وأما حزب الخوارج فهو كحزب الشيعة لم تقم له دولة في ذلك الزمن، فهو ليس كالحزب الأموي الذي حكم نحواً وتسعين سنة، ولا كالحزب الزبيري الذي قامت له دولة قصيرة العمر في العراق والحجاز، وهذا بطبيعة الحال أبعد حزبهم عن دائرة الشعراء المداحين طالبي الرفد والعطاء الذين التفوا حول الأمويين والزبيريين، ومن ثم فإن جميع شعرائه كانوا من الذين يؤمنون بالفكر الخارجي عقيدة وعملاً.

ولقد مر بنا أن فكرتهم في الحكم تقوم على رفض كل النظم السياسية التي مثلتها الأحزاب الأخرى في هذا الطور ففكرتهم السياسية التي قامت عليها عقيدتهم ترفض فكرة الولاية الدينية التي قامت بها الشيعة، كما ترفض فكرة القبلية التي قال بها الأمويون، وفكرة الزبيريين القائلة بالإقليمية الخاصة.

ويمكن أن نضيف هنا أنهم كانوا يرمون مخالفيهم من الأحزاب الأخرى بالكفر والمروق عن الدين سواء الذين كانوا على سدة الحكم أو الذين يتطلعون إليه، وقد دفعهم هذا إلى إعلان الحرب على هؤلاء المخالفين رغبة منهم في تحقيق الإصلاح في الأرض وإيجاد الحكم الذي يرونه، ويعتقدون أنه ينأى بأهله عن الدنيا وما فيها من رغائب، ويقربهم من طريق الحق والسداد الذي يهدف إليه الدين.

(1) حياة الشعر في الكوفة ص123 وما يليها.

ويرى بعض الباحثين أنهم في سبيل هذا الإصلاح الذي هدفوا إليه تنكبوا الطريق إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلونها على المسلمين أو أن سيوفهم كانت شديدة الحماقة على رقاب المسلمين يقتلون المسلم ويبقون على الذمي وبذلك مزقوا الجماعة الإسلامية[1].

وفي إدراكي أن مثل هذا الكلام لا ينطبق على سائر فرقهم كما لا يشملهم في جميع الأحوال أما تمزيق الجماعة الإسلامية فالأحزاب فيه سواء، بل إن الحزب الأموي الحاكم الذي ظل الخوارج يحاربونه طوال فترة حكمه كان البادئ في هذا التمزيق حين امتنع مؤسسوه الأوائل عن مبايعة علي الذي أجمع عليه أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار في المدينة، غير أن هذا لا ينفي دورهم الكبير في تمزيق الجماعة الإسلامية فضلاً عن أنهم – كالشيعة – انقسموا إلى طوائف وفرق زادت التمزيق تمزيقاً والوحدة تصدعاً.

ويرجع انقسامهم إلى أنهم انطلقوا في سعيهم نحو الإصلاح من فكرتين: فكرة تقول بالنهوض والجهاد، وأخرى تقول بالعقود، وحول هاتين الفكرتين تشعبت فرقهم وتعددت من أزارقة وصفرية ونجدات وأباضية.

وتبعاً لتعددهم هذا كثر شعرهم وشعراؤهم، غير أن أشهر شعرائهم ثلاثة هم: عمران بن حطان، وقطري بن الفجاءة، والطرماح بن حكيم، وأكثر هؤلاء شعراً هو الطرماح بن حكيم إذ نجد له تنوعاً في أغراض الشعر

---

(1) ينظر العصر الإسلامي لشوقي ضيف ص302 والأدب في موكب الحضارة الإسلامية لمصطفى الشكعة ص75.

من مدح وغزل وهجاء [1]، أما بقية شعراء الخوارج من ذكرنا ومن لم نذكر فتغلب على شعرهم أغراض الحماسة والرثاء والزهد.

فإذا نظرنا إلى حماستهم وجدنا أنها حماسة لا تحركها العصبيات القديمة عصبيات القبيلة التي كانت تقوم على الأخذ بالثأر، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسة التي تعمقتهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الحنيف، وأن عليهم أن يجاهدوا في سبيلها مخلصين حتى يفوزوا برضا اله وثوابه " [2].

وشعرهم في هذا الجانب يصوِّر حب الموت وتفانيهم في الظفر به فهم دائماً في ساحة الجهاد الذي ملأ أفئدتهم رجالاً ونساءً يكرهون الموت على الفراش، ويتوقون إليه تحت ظلال السيوف والرماح، يقول عمران بن حطان، وقد رأى زميل جهاده أبا بلال مرداس به أديَّة يصرع في ساحة الوغي.

لقد زاد الحياةَ إليَّ بغضاً	**وحُبّاً للخروج أبو بلال**
أحاذر أن أموت على فراشي	**وأرجو الموت تحت ذرا العوالي**
ولو أني علمت بأن حتفي	**كحتف أبي بلال لم أُبالِ**
فمن يك همُّه الدنيا فإني	**لها - والله رب البيت - قال[3]**

---

(1) ينظر ترجمته في اغاني الساسي ج11 ص146 وما بعدها وديوانه ط كرنكو-لندن.

(2) العصر الإسلامي لشوقي ضيف ص 302.

(3) خزانة الأدب للبغدادي ج3 ص359 وما يليها.

ولم يكن حبُّ الموت مقصوراً على الرجال منهم بل شمل نساءهم الخارجيات يحدثنا أبو الفرج عن امرأة يقال لها أم حكيم كانت مع قطري بن الفجاءة في يوم دولاب، وكانت تحمل على الناس وترتجز.

أحمل رأساً سئمتُ حمله وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله (1)

والحق أن شعرهم يزخر بصور التضحية والفداء، فقد شروا أنفسهم في طاعة الله ووهبوها للجهاد في سبيله وبذلك سموا بالشراة يقول الطرماح بن حكيم مصوِّراً أن ينال ميته تنجيه من النار:

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له إن لم أفز فوزة تنجي من النار

والنار لم ينج من روعاتها أحدٌ إلا المنيب بقلب المخلص الشاري(2)

ويقول قطري بن الفجاءة في حماسته الدافقة التي سارت بين كتب الأدب وجرت على ألسنة المتأدبين

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لا تراعي

فإنكِ لو سألتِ بقاء يوم على الأجل الذي لك لن تطاعي

فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع

سبيلُ الموت غاية كلِّ حيّ فداعيه لأهل الأرض داع

---

(1) الأغاني ساسي ج6 ص6.

(2) خزانة الأدب، جـ8 ص 75.

لقد كان الخوارج يتوخون من كل عمل يقومون به الجنة ورضوان الله تعالى، حتى الجريمة التي ارتكبها عبد الرحمن بن ملجم المرادي حين أقدم على قتل علي عليه السلام نرى شاعرهم عمران بن حطان يصورها لنا عملاً لتقي يبلغ به الرضوان عند الله. يقول مادحاً ابن ملجم على فعلته النكراء:

يا ضربة من تقيٍ ما أراد بها ... إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره حيناً فأحسبه ... أوفى البريّة عند الله ميزانا[1]

أما شعرهم الذي قالوه في رثاء أخوتهم الذين صرعوا في المعارك فيمثل من حيث معانيه صورة جديدة إذا ما قيس بمعاني الرثاء فقي الشعر العربي، فهو يصوِّر شعوراً حزيناً بالفقد غير أننا لا نجد فيه بكاءَ على الصفات التي يصوِّر الشعراء فقدها برحيل المرثي من كرم ونجدة ومروءة وغيرها وإنما نجد فيه بكاءً على فقد صفات الفرد الخارجي من تقوى وورع وزهد في الدنيا وعزوفٍ عن ملذات الحياة وانصراف كامل نحو الأخوة، ومن أجل ذلك كثيراً ما نرى الشاعر منهم يتمنى ان ينال ما ناله من يرثيه من موت وشهادة يقول عمران بن حطان في رثاء مرداس بن أديَّة:

يا عينُ بكّي لمرداسٍ ومصرعه ... يا ربَّ مرداس ألحقني بمرداس

تركتني هائماً أبكي لمرزئتي ... في منزل موحشٍ من بعد إيناس

---

(1) الأغاني جـ 16 ص147، وقد نقض هذه القصيدة جماعة من الشعراء يأتي على رأسهم شاعر شاعر بني العباس السيد الحميري الذي قال:

لا درَّ درُّ المرادي الذي سفكت ... كفاه مهجة خير الخلق إنسانا

أنكـرْتُ بعـدك مـن قـد كنـت   مـا النـاس بعـدك يـا مـرداسُ[1]

ومثله كعب بن عميرة الذي قال يرثي أهل النهروان من الخوارج، وكان آخوه قد حبسه عن الخروج معهم، فقال مصوَّراً حزنه على فوزهم بالموت من دونه، متمنياً من الله أن يهب له ميتة مثل ميتتهم:

لقد فاز أخواني فنالوا التي بها   نجـوا مـن عـذاب دائـمٍ لا يفـتر

أبـى الله إلاَّ أن أعـيش خلافهـم   وفي الله لـي عـزٌّ وحـرز ومَنْصَـرُ

فيا رب هَبْ لي ضربة من مهنَّدٍ   حسـامٍ إذا لاقـى الضـريبة يَهْبُـرُ[2]

فهم حريصون على تصوير حبهم للموت واللحاق بمن يرثونه، وهذا أمر نتج عن عقيدتهم الراسخة في أن الذاهبين منهم قد حققوا سعادتهم الأبديَّة بهذا الموت الذي نالوه في ساحات الوغي، حتى الأمهات منهم يصوِّرون هذا الجانب في رثاء أبنائهن، ومن ذلك رثاء أمِّ عمران الراسبي لابنها الذي قتل في يوم دولاب فقد قالت فيه :

اللهُ أيَّـد عمرانـاً وطهَّـره   وكـان عمـران يـدعو الله في السحـر

يـدعوه سـراً واعلانـاً ليرزقـه   شـهادة بيـدي مِلْحَـادةٍ غُـدَرِ

ولـيَّ صـحابته عـن حُـرِّ ملحمـة   وشدّ عمرانُ كالضرغامة الذكـر[3]

وقد دفعهم حرضهم على الموت، وتمثلهم له في كل حين إلى اتخاذ نظرة نحو الحياة تدل على زهد فيها وعزوف عن كل رغبة من رغائبها ، فالعيش في

---

(1) خزانة الأدب جـ 5 ص360.

(2) معجم الشعراء للمرزباني ص234.

(3) الأغاني ط ساسي جـ 6 ص4.

الدنيا يعد في نظرهم شقاءً وعذاباً لا يستريح المرء منه إلا باحتساب نفسه لربه وتهافته الملحّ على الموت ليحقق سعادته بفوز الجنة، ولقد تسلطت عليهم هذه الأفكار فلوّنت شعرهم بمعاني الزهد وجعلته يزخر بها. وابرز شاعر لديهم في هذا الجانب هو عمران بن حطان إذ له قطع في كلِّ لحظة من لحظات الحياة يقول في كلمة له:

حتى متى تُسْقَى النفوس بكأسها ريب المنون وأنت لاه ترتعُ

أَفقد رضيتَ بأنْ تُعَلَّلَ بالمُنَى وإلى المنيَّة كلَّ يوم تُرفع

أحلامُ نوم أم كظلٍ زائل إنَّ اللبيبَ بمثلها لا يُخْدَعُ[1]

والحياة في نظره سحابة لابدَّ أن تنقشع، ومع ذلك يرى أشقياء الناس الجائعين لا يسأمونها، ولا يدركون أنهم فيها كوكب قضوا حاجاتهم فارتحلوا في طريق واضح المعالم يقول عن الحياة:

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجُوَّع

اراها وإن كانت تحبُّ فإنها سحابة صيف عن قليل تقشَّعُ

كركبٍ قضوا حاجاتهم وترحَّلوا طريقهم بادي العلامة مَهْيَعُ[2]

إن اتجاههم نحو الزهد، وعزوفهم المطلق عن الحياة قد مثّل جزءاً من عقيدتهم الممتزجة بسياستها في الحياة، ومن ثم جعلتهم ينبذون السبيل التي سلكها الشعراء الآخرون، فهم يرفضون التكسب بالشعر والتداني إلى عطايا الخلفاء والأمراء وذوي الجاه والمال، بل هم يهاجمون شعراء عصرهم الذين

(1) خزانة الأدب جـ5 ص36.

(2) المصدر نفسه جـ 5 ص361 والمهيع المنبسط على وجه الأرض.

اتجهوا في حياتهم الشعريَّة هذا الاتجاه، ومن ذلك ما قاله عمران بن حطان للفرزدق وقد رآه ينشد للناس شعراً في المديح بمربد البصرة:

أيُّها المادحُ العبادَ ليُعْطَى إنْ لله ما بأيدي العباد

فاسأل الله ما طلبت إليهم وارجُ فضل المقسِّم العوَّاد

لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسمي البخيل باسم الجواد[1]

وربما كان سبيلهم التي سلكوها في حياتهم هي التي جعلت شعرهم يدور حول ما حددناه في البداية من أغراض الحماسة والرثاء والزهد بل إن قصائدهم في بنائها جاءت في غلبتها- كما يرى الدكتور عبد القادر القط- ممثلة لنهج يخالف نهج الشعراء فلا بكاء على الأطلال، ولا غزل تقليدي بالمرأة، ولا وصف للرحلة الشاقة في سبيل الوصول إلى الممدوح، ولا حديث مفصِّل عن وقائع الجاهليَّة وأنساب القبائل والآباء والأجداد ومكانهم من الصنعة والشرف ما دام يرفض التفاخر بالأنساب ويرى أن أكرم الناس عند الله اتقاهم" [2].

وأما الحزب الزبيري فأنَّ دولته كانت قصيرة العمر، ارتبطت بحياة مؤسسه . بدالله بن الزبير وأخيه مصعب فلما قتلا في صراعهما على الحكم مع الحزب الأموي انتهى هذا الحزب وتلاشى من الوجود.

على أن الفكرة التي قام عليها هذا الحزب كان لها صدى في سائر أهل الحجاز الذين كرهوا أن تتحول الخلافة على يدي بني أمية إل الشام، واعتبروا

---

(1) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(2) في الشعر الإسلامي والأموي ص378.

هذا إضعافاً لمجد قريش الذي ارتبط بالحجاز منذ الجاهليَّة، فنقل الخلافة من الحجاز واعتماد الأمويين على قبائل اليمن في تثبيت سلطانهم كان عاملاً أساسياً في تأييد أهل الحجاز لابن الزبير حين نهض لأمر الخلافة فقد دان له الحجاز كله، ودانت له العراق ومصر. وأيَّدَته قبائل قيس وبفضلها دخلت الجزيرة وخراسان تحت أمرته [1].

وإذا كان هذا الحزب قد بدأ نجمه يسطع في بطحاء مكة في وقت بدأت نار الأمويين بعد يزيد بن معاوية تخبو قليلاً كان من الطبيعي أن نجد من حوله شعراء يؤيدونه ويذودون عنه، ويمدحون القائمين على أمره، ولكننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقرر أن عدد شعراء هذا الحزب كان قليلاً، ذلك لأن سياسة ابن الزبير الماليَّة كانت تختلف عن سياسة بني أميَّة، فقد كان مقتراً بعض الشيء وكان لا يعمل على كسب الشعراء إلى صفه بإغداق الأموال عليهم، ولعلَّ هذا ما عناه الدكتور مصطفى الشكعة حين قال: " ولو كان عبد الله بن الزبير جمع إلى شجاعته النادرة ومثابرته وذكائه بلاغته شيئاً من الدهاء والكياسة التي ينبغي أن يتسلح بها من يعرض نفسه لجسائم الأمور على مستوى الخلافة لكان للزبيريين دولة وطيدة الأركان عميقة الجذور ولكان لقريش في مكة خلافة مرموقة لعدة أجيال من الزمان " [2].

على أنه كان عبد الله ذا سياسة لا تعرف الترغيب بالمال واستخدام الكياسة التي أرسى دعائمها لني أميَّة معاوية ومن بعده عبد الملك خصم ابن الزبير فإن أخاه مصعباً على نقيض منها، فقد كان جواداً ممدحاً استطاع إبَّان

---

(1) تاريخ الطبري جـ 4 ص421.

(2) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ص97.

ولايته على العراق أن يكسب إلى صفّه طائفة من الشعراء حتى من كان هواهم مع بني أميَّة مثل عبدالله بن الزبير الأسدي[1].

والذي يهمنا هنا ليس الشعراء المداحين الذين اتجهوا بمديحهم نحو عبد الله وأخيه مصعب وإنما يهمنا الشعراء الذين آمنوا بفكرة الزبيريين ونادوا بها وعضدوها، وقد كان هؤلاء قلة يأتي على رأسهم شاعر مجيد هو المقدم من شعراء قريش في الإسلام ذلك الشاعر هو عبيد الله بن قيس الرقيات[2]، فقد استطاع هذا الشاعر أن يترك آثاراً شعريَّة تدل على أنه كان مع قريش في فكرة إعادة مجدها بإعادة الخلافة إلى الحجاز، بل كان أحرص الشعراء القرشيين على هذا المجد، فهو يشيد بأيَّام مدها الأولى، ويتحسر على ما صارت إليه من فرقة واختلاف يقول في همزيته المشهورة:

حبذا العيشُ حين قومي جميعٌ — لم تفرِّق أمورها الأهواءُ

قبل أن تطمع القبائل في ملـ — ـك قريش وتشمت الأعداء

أيها المشتهي فناء قريشٍ — بيد الله عمرُها والفناءُ

إنْ تودِّع من البلاد قريشٌ — لا يكن بعدهم لحيٍّ بقاءُ[3]

ولأن فكره مع الحزب الزبيري فهو يتحرك بشعره لمدح ابن الزبير حيث يراه خير من يستحق الخلافة دون غيره من المتنافسين فيها من قريش يقول :

---

(1) ينظر ترجمة ابن الزبير في الأغاني جـ 13 ص 31 وما بعدها خزانة الأدب جـ 2 ص264.

(2) ينظر خبر أبي الفرج الذي رواه عن الزبير بن بكار فقد سال جماعة من أهل العلم بالشعر عن شاعر قريش في الإسلام فأجابوا بانه ابن قيس الرقيات . أغاني الساسي جـ 4 ص155.

(3) ديوان ابن قيس الرقيات تحقيق محمد يوسف نجم ط صادر بيروت ص 90.

وابن اسماء خير من مسح الركـ ... الـركن فعـالاً وخيرهـم بنيانـا

وإذا قيـل مَـنْ هجـان قـريش ... كنت أنت الفتى وكنت الهجانا[1]

وإذا كان ابن قيس الرقيات قد وقف يعضِّد الحزب الزبيري ويشيد بقطبيه عبد الله ومصعب فإنه كان ينال من الأمويين خصوم الزبيريين، بل كان يؤلِّب النفوس ضد حكمهم بالشام، ويدعوها إلى حربهم، انتقاماً لما فعلوه بالحسين ومن معه بالطف في كربلاء، يقول الهمزيَّة التي أشرنا غليها من قبل:

كَيْفَ نومي على الفراش ولمَّا ... تشملِ الشَّامَ غارةٌ شعواءُ

تُذهِلُ الشيخَ عن بنيه وتُبْدي ... عن بُراها العقيلةُ العذراءُ

أنا عنكُمْ بني أميَّة مُزْوَ ... رٌّ وأنتمْ في نفسيَ الأعداء

إنَّ قَتْلَى بالطفِّ قد أَوْجَعَتْني ... كان منكُمْ لئن قُتِلْتُمْ شِفَاءُ[2]

هذه الثورة التي دلت عليها معاني هذه الأبيات كان يصحبها نيل من بني أميَّة من نوع آخر أشار إليه كل من شوقي ضيف ومصطفى الشكعة [3]، فقد اتبع ابن قيس الرقيات طريقة شيطانية يغبط بها الأمويين حيث كان يتغزل بعاتكة زوج عبد الملك، وبأم البنين زوج الوليد ابنه، وكان هذا الغزل فاضحاً في بعض صوره، ولا شك أنه كان يؤذي البيت الأموي الحاكم، ويستطيع الدارس أن يدرك منه أن للحياة الحضريَّة التي عاشها الناس في الحجاز أثراً

---

(1) ديوانه ص 103 والهجان من كل شيء خيره ، وهجان قريش خيرها وأفضلها.

(2) المصدر نفسه ص87.

(3) ينظر العصر الإسلامي ص297 وما يليها، والشعر في موكب الحضارة الإسلامية ص99.

فيه، وإن بدا في صورته الخاصة متصلاً بالسياسة ومعبراً عن موقف ابن قيس الرقيات من بني أميَّة [1].

وبجانب ابن قيس الرقيات نجد قطعاً شعريَّة لشعراء آخرين نلمس فيها تأييداً لابن الزبير وحزبه بعضها ربما وجد بدافع من الطمع في العطاء، وبضعها بدافع من العصبيَّة، فمثال الأول قول عمرو بن هند النهدي يشيد بأبناء الزبير وينال من بني أميَّة :

ألم تـــر أولادَ الـــزُّبير تحـــالفوا　　على المجد ما صامت قريش وصلَّت

هم منعوا البيت الحرام فأصبحت　　أميــة تاهــت في الــبلاد وضــلت

قــريش غيــاث في الســنين وأنــتم　　غياثُ قريش حيث سارت وحلَّت[2]

ومثال الثاني ما نجده في شعر زفر بن الحارث الكلابي الذي كان زعيماً للقيسية، يشارك بشعره في العصبية التي قامت بين قيس وقبائل اليمن، فقد كانت اليمانية مع بني أميَّة، وكانت القيسية مع ابن الزبير، ومن ثم نرى زفراً يتهدد قبائل اليمن، ويشير في تهديده إلى وقوفه ومن معه دون ابن الزبير:

أفي الله أمــا بحــدل وابــن يحــدلٍ　　فيحــي وأمــا ابــنُ الــزبير فيقتــلُ

كـــذبتم وبيـــت الله لا تقتلونـــه　　ولَمــا يكـــن يــومٌ أغـــرُّ محجـــلُ

ولمــا يكــن للمشــرفيَّة فــوقكم　　شعاع كقرن الشمس حين ترجَّلُ[3]

---

(1) ينظر هذا الغزل في ديوانه ص 141 وما بعدها.

(2) معجم الشعراء للمرزباني ص45.

(3) نقائض جرير والأخطل ص64.

وهكذا من خلال وقوفنا على هذا النوع من الشعر السياسي ننتهي إلى أن الأحزاب التي قامت في هذا الطور، قد وجدت من الشعراء من يسندها ويعضّدها ،ويدافع عنها، كل حسب مكنته الأدبية وطاقته الفنية، ولأن هذه الأحزاب كانت مختلفة الأهواء متعددة المشارب جاء الشعر معبراً عن هذا وملوناً بهذه الأهواء والمشارب، من عصبية قبلية عاطفة دينية أو عصبية إقليمية، ولقد استطاعت هذه الأحزاب – وبخاصة الحزب الأموي – أن توظف الشعر لغاياتها ومراميها السياسية، فكانت بذلك تضع الأسَ الذي تقوم عليه العلاقة بين الدولة والشعر، وهي علاقة يمكن أن نستخلص منها حقيقة مهمة تتصل بتاريخنا الأدبي هي : أن اتصال الشعر بالسياسة وإن مثل نوعاً من الازدهار الواضح في هذا الطور الأموي وفي العصور التي تلته فإنه قد ربط الشعر بالسلطان، وجعله يسير في ركابه بل كان له تأثير واضح في الصورة الكاملة لأدب كل عصر من العصور، فما اتصل بالسلطان كان له ذكر ووجود وما لم يتصل ضاع مع الزمن وتبخّر في أجواء القرون التي طويت إلاّ في حالات نادرة خاصة لا تقاس.

عدي بن الرقاع

من عاملة إحدى قبائل قضاعة، كان منزله بدمشق وهو بذلك يسلك في حاضرة الشعراء، وكان مقدماً عند بني أمية- كما يقول أبو الفرج مداحاً

لهم، خاصاً منهم بالوليد بن عبد الملك، ونراه يشترك في مخاصمات أشراف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية، ولما أُشرعت الأسنة بين القبائل اليمنية وقيس في الشام ناصر قومه وبني أمية، ونراه مع عبد الملك في حربه لمصعب بن الزبير، وله يمدحه مفاخراً بنصرتهم له:

لعمري لقد أصحرتْ خيلنا | بأكنافِ دجلة للمصعبِ[1]
يهزون كل طويل القنا | ة ملتم النصل والثعلبِ[2]
تقدمنا واضح وجهه | كريم الضرائب والمنصبِ[3]
أُعين بنا ونُصرنا به | ومن ينصر الله لم يغلب

ولا نكاد نمضي في عصر الوليد بن عبد الملك حتى نجده يقربه منه ويتخذه شاعره الرسمي، حتى ليعليه على جرير في بعض مجالسه، ويثور جرير، ويهجوه فيتدخل الوليد ويتهدده إن عاد إلى هجائه، ويظل في رعايته يصفيه مدائحه، ويتغنى له فيها المغنون، ومما غنى له ابن سريج فيه قوله:

صلّى الذي الصلوات الطيبات له | والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
هو الذي جمع الرحمن أمته | على يديه وكانوا قبله شيعا
إن الوليد أمير المؤمنين له | ملك عليه أعان الله فارتفعا

وقوله:

صلى الإله على امرئ ودعته | وأتم نعمته عليه وزادها

---

(1) أصحرت: برزت.

(2) الثعلب: رأس الرمح.

(3) الضرائب: الطباع.

أولا تـــرى أن البريـــة كلـــها ... ألقــت خزائنهــا إليــه فقادهــا[1]

ولقـــــد أراد الله إذ ولاّكهــــا ... مــن أمــة إصــلاحها ورشــادها

أعمــرت أرض المسـلمين فأقبلـت ... ونفيــت عنهــا مــن يــروم فســادها

وأصـبحت في أرض العـدو مصيبةً ... عمــت أقاصــى غورهــا ونجادهــا

ظفــراً ونصــراً مــا تنــاول مثلــه ... أحــدٌ مــن الخلفــاء كــان أرادهــا

وإذا نشــرت لــه الثنــاء وجدتــه ... جمـع المكـارم طرفهـا وتلادهـا[2]

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً، محاولاً بكل ما يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره لسياستها وصلاح شؤونها ورشاد أمورها والتئام شعتها، وقد انقادت إليه بأزمها، والله يتم عليه نعمته، وهي تصلي له وتدعو بالتوفيق بل إن الله في علاه ليصلي عليه كما يصلي على نبيه محمد المصطفى، ويصور حسن سياسته الداخلية، وكيف أعمر أرض المسلمين حتى ازدهرت وآتت أكلها، وإنه ليحوطها بجنده منزلاً على أعدائها صواعقة، فتمحقهم محقاً.

وفي أشعاره ما يدل على أنه كان يعنى بها عناية شديدة إذ ما يزال يصقلها ويشذبها حتى تلين له متونها، مردداً فيها نظره مجيلا عقله، يقول:

وقصــيدةٍ قــد بــتُّ أجمــع بينهــا ... حتــى أقــوم ميلــها وســنادها[3]

نظــر المثقــف في كعــوب قناتــه ... حتــى يقــيم ثقافــه منآدهــا[1]

---

(1) الخزائم: جمع خزامة وهي البرة يخزم بها البعير في آنفه، كنى بذلك عن الانقياد والطاعة.

(2) طرفها: حادثها. تلادها: قديمها.

(3) السناد: من عيوب الروي.

وأشتهر بين القدماء بأنه كان يحسن وصف الإبل وحمر الوحش والظباء، ومن بديع وصفه لظبية ترتعي ومعها شادنها أو ابنها قوله:

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلمٌ أصاب من الدواة مدادها(2)

ويشبه امرأة بجؤذر، فيقول:

وكأنها وسط النساء أعارها عينه أحور من جآذر جاسم(3)

وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم(4)

ونراه يصف سنابك حماري الوحش حين يعدوان في الصحراء ويثيران من حولهما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول:

يتعاوران من الغبار ملاءةً غبراء محكمةً هما نسجاها

تطوى إذا علوا مكاناً ناشزاً وإذا السنابك أسهلت نشراها

وله في النسيب أبيات تدل على حسه من مثل قوله:

ولقد تبيت يدُ الفتاة وسادةً لي جاعلا يسرى يدي وسادها

ولعل في كل ما قدمناه ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً، وأنه كان يطلب في شعره أن يأتي بالصور الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة(5).

---

(1) المثقف: الذي يشحذ الرماح والسيوف ويقومها . منآدها: معوجها.

(2) تزجى: تسوق. الأغن: الشادن في صوته غنة. الروق: القرن. إبرته: طرفه المحدد.

(3) الجآذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة. وجاسم : من قرى دمشق.

(4) أقصده: صرعه. رنقت: خالطت.

(5) العصر الإسلامي، شوقي ضيف، (دار المعارف – القاهرة 1976)، ص343- 346.

الكميت بن زيد الأسدي

الكميت شاعر فحل مشهور، من شعراء الدولة الأموية، وأحد البلغاء الخطباء الفصحاء، وممن يضرب بهم المثل في البلاغة والبيان، ذلكم هو الكميت بن زيد الأسدي.

وموطن الكميت هو الكوفة، والكوفة من أشهر البلاد الإسلامية، وأذيعها صيتاً في اللغة، والأدب، والشعر، وهي مجال الصراع السياسي بين الشيعة وبني أمية، وكانت عاصمة علي عليه السلام، وبقربها قتل الحسين عليه السلام بكربلاء، وأكثر أهلها شيعة يتعصبون لعلي وآل بيته، ووالد الكميت هو زيد بن خنيس بن مجالد من أسد من مضر من نزار، وقومه بنو أسد مشهورون بفصاحة اللغة وسلامة الملكات.

ولد سنة 69هـ، ونشأ بالكوفة بين قومه بني أسد إحدى قبائل العرب الفصحاء من مضر، فلقن العربية، وعرف الأدب والرواية، وعلم أنساب العرب وأيامها بمدارسة العلم والأخذ عن الأعراب، وكانت له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تقصان عليه أخبارها وأشعار أهلها، فتخرج أعلم أهل زمانه في ذلك، واقر له حماد الرواية بالسبق عليه وقال الكميت الشعر وهو صغير، وكان لا يذيعه ولا يتكسب به، ويكتفي بحرفته – تعليم صبيان الكوفة بالمسجد- ولما حصف شعره وقوى أسره، ولاسيما في قصائده التي أعلن فيها تشيعه لبني هاشم وآل علي اخذ يتصل بالولاة، والهاشميين، يمدحهم وينال جوائزهم[1].

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب

(1) الحياة الأدبية، عصر بني أمية، ص191.

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ... ولا لعباً منّي وذو الشيب يلعب[1]

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى ... وخير بني حواء، والخير يطلب[2]

إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نالني أتقرب[3]

بني هاشم رهط النبي، فإنني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

خفضت لهم مني جناحي مودةً ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب[4]

وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... مجنا على أنّي أذم وأقصب[5]

وأُرمى وأَرمي بالعداوة أهلها ... وإنّي لأوذى فيهم وأؤنب

فما ساءني قول امرئ ذي عداوةً ... بعوراء فيهم يجتديني فأجذب[6]

فقل للذي في ظل عمياء جونةٍ ... ترى الجور عدلاً أينَ لا أين تذهب[7]

بأي كتاب أم بأية سنةٍ ... ترى حبهم عاراً عليّ وتحسب؟[8]

وجدنا لكم في آل حاميم آيةً ... تأوّلها منا تقيّ ومعرب[9]

وفي غيرها آيا وآياً تتابعت ... لكم نصب فيها الذي الشك منصب

---

(1) البيض: أي النساء البيض.

(2) النهى: العقل.

(3) البيض: كناية عن الأشراف.

(4) الكنف: الجانب والظل. عطفاه: جانباه.

(5) المجن: الترس. أقصب: أشتم.

(6) العوراء: القبيح من القول أو الفعل. يجتديني: يطلب مني اتباعه.

(7) عمياء: ضلالة. جونة: سوداء.

(8) الكتاب: القرآن. السنة: الحديث.

(9) حاميم: سور من القرآن.

بحقكم أمست قريش تقودنا ... وبالفذ منها والرديفين نركب[1]
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا ... وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم فضلاً على الناس واجباً ... سفاهاً وحقُّ الهاشميين أوجب
ولكن مواريثُ ابن آمنة الذي ... به دان شرقي لكم ومغرب
فدى لك موروثاً أبي وأبو أبي ... ونفسي، ونفسي بعد بالناس أطيب
وتستخلف الأموات غيرك كلهم ... ونقب لو كنا على الحق نعتب
يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بكيل وأرحب[2]
وعك ولخم والسكون وحمير ... وكندة والحيان بكر وتغلب
ولانتشلت عضوين منها يحابر ... وكان لعبد القيس عضو مؤرب[3]
وما كانت الأنصار فيها أذلة ... ولا غيباً عنها إذ الناس غيب
هم شهدوا بدراً وخيبر بعدها ... ويوم حنين والدماء تصبب
فإن هي لم تصلح لحي سواهم ... فإن ذوي القربى أحق وأقرب

قيمة شعره:

يريد الكميت إثبات حق آل البيت الهاشمي في الخلافة ومن ثم فشعره أقرب إلى الأسلوب الخطابي منه إلى الأسلوب الشعري، فهو جدال يركب مركب العقل والتفكير، ويتخذ العاطفة الصادقة وسيلة لتقوية تفكيره

---

(1) الفذ : أي معاوية. الرديفون: من جاء بعد معاوية.

(2) بكيل وأرحب: حيان من همذان.

(3) انتشلت: أخذت ، يحابر: بطن من مراد. مؤدب: تام.

وجدله، وهو في مناظرته هذه يسير على نظام النظر العقلي والاستشهاد بآي القرآن الكريم، فخاتم الخلافة هو لبني هشام اغتصبه الأمويون اغتصاباً، والخلافة لبني هاشم بحكم القران نفسه، وان استولى عليها بنو أمية ظلما، والخلافة ليست وراثية لهم بل ان بني هاشم أولى منهم بها لأنهم آل النبي الأقربون، ومن ثم فحجج بني أمية باطلة لا تقوم على منطق صحيح وتفكير سليم، وهكذا أصبح الشعر مع الكميت صورة صادقة لتطور العقل العربي نحو الصياغة الفكرية[1].

(1) الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، لجنة دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص171.

عبيد الله بن قيس الرقيات

كان القرشيون في الحجاز ناقمين على بني أمية منذ أن استأثر معاوية بالحكم ثم جعله وراثة بأخذ البيعة لابنه يزيد غصباً ، وكان القرشيون يرون أن معاوية ومن معه ممن حاربوا الإسلام والمسلمين وهم من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم وليست لهم سابقة في الإسلام، وزادت النقمة على الأمويين حين جعل معاوية ولاية العهد لابنه يزيد ، وعارض هذه البيعة أبناء الصحابة وعلى رأسهم الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وعبدالله بن الزبير.

وحين دعا أهل الكوفة الحسين ليبايعوه استجاب لهم وذهب إلى العراق وكان مقتله في فاجعة كربلاء المشهورة ، وبمقتله خلا الجو لابن الزبير الذي عاذ بمكة ، ووجد في مقتل الحسين ذريعة للتشنيع على الأمويين وولاتهم، وثار أهل المدينة وطردوا من فيها من بني أمية ، فجهز يزيد جيشاً من أهل الشام وأكثرهم من قبائل كلب وغيرها من القبائل اليمانية ، وكان الأمويون قد أشعلوا نار العصبية بين اليمانية والقيسية ، وكانت عصبية قبيلة جاهلية أطفأها الإسلام ثم أعادها الحكم الأموي، فاستباح الجيش الأموي مدينة الرسول ﷺ، وكانت وقعة الحرة المشهورة، ثم توجه الجيش الأموي إلى مكة التي التجأ إليها ابن الزبير ودعا إلى نفسه، وحاصر الجيش الأموي مكة ورميت الكعبة بالمجانيق والعرادات، وحرقت الكعبة وانهدمت، واستفز

المسلمون وفيهم الخوارج للدفاع عن بيت الله، ولم ترفع غمة الحصار إلا بموت يزيد حيث عاد الجيش الأموي إلى الشام[1].

وعهد يزيد إلى ابنه معاوية بن يزيد، ولكنه توفي بعد قليل، فخلا الأمر لعبدالله بن الزبير في مكة، وكان ابن الزبير أكفأ القرشيين الذين التف أهل الحجاز حوله وكانت فيه خصال ترشحه للخلافة، منها أنه كان تقياً ورعاً وفارساً من فرسان الفتوح في أفريقيا، وأبوه الزبير بن العوام من الصحابة المقدمين، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وخالته عائشة أم المؤمنين، وقد تداعت الأمصار لبيعة ابن الزبير فبايعته قبائل قيس في الشام، وبايعه أهل العراق والجزيرة ومصر وخراسان التي كانت بقيادة عبدالله بن خازم السلمي القيسي، وكان عبدالله قد ولى أخاه مصعبا على العراق الذي استقر أمره والتف أهله حول مصعب بن الزبير الذي عرف بشجاعته وحسن سيرته وكرمه.

ولكن الأمر لم يستتب لآل الزبير، إذ سرعان ما دعا مروان بن الحكم لنفسه في الشام، فبايعه الأمويون وقبيلة كلب والقبائل اليمنية، وحمل مروان على القبائل القيسية في الشام فأوقع بهم وهزمهم في وقعة مرج راهط، فصفت له الشام، ثم تبعتها مصر، فأرسل إليها ابنه عبد العزيز والياً، وانتقل الحكم في الشام من السفيانيين معاوية وذريته إلى المروانيين مروان بن الحكم وذريته، ولم يطل حكم مروان بن الحكم إذ سرعان ما توفي، فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان، وبظهور عبد الملك بدأ حكم ابن الزبير يتزعزع، فقد كان عبد الملك سياسياً محنكاً، وكان كريماً يبذل المال ويشتري به الأعوان وطاعة

(1) انظر: في اخبار ابن الزبير وحصار مكة، الطبري 102/7، اخبار مكة للأزرقي ص37، مروج الذهب 95/2.

من حوله، على خلاف ابن الزبير الذي عرف ببخله وحرصه، فانفض عنه كثير من أنصاره وقت الشدة، ومما يروي في هذه المناسبة عن بخله وسوء سياسته أن فضالة بن شريك الأسدي [1] وفد عليه ويأمل منه ما يأمله أمثاله من الخلفاء، فقال له: " إن ناقتي قد نقبت ودبرت، فقال: أرقعها بجلد واخصفها بهُلّب، وسر البردين بها تصح، فقال فضالة: إني أتيتك مستحملاً ولم آتك مستوصفاً، فلعن الله ناقة حملتني إليك، فقال له ابن الزبير: إن وراكبها[2]" فانصرف فضالة من عند ابن الزبير وهو يقول[3]:

شكوت إليه أن نقبت قلوصي ... فرد جواب مشدود الصفاد

يضن بناقة ويروم ملكاً ... محال ذلكم غير السداد

ومن البديهي بعد ذلك أن ينضم الشاعر إلى بني أمية ويشيد بكرمهم.

ولما ملك عبد الملك بن مروان قاتل مصعب بن الزبير في العراق وقتله، ودخل الكوفة وولى عليها والياً من قبله، ثم بعث الحجاج لمقاتلة عبدالله بن الزبير في مكة، فحاصر الحجاج مكة ثمانية أشهر وضرب الكعبة بالمنجنيقات فاحترقت، فاضطر أهلها إلى طلب الأمان، وانفض عن ابن الزبير كثير من أنصاره وأقاربه، ولم يبق معه إلا قلة قاتلوا معه حتى قُتل، وصلبه

(1) ينظر في هذا الأغاني 71/12، ومعجم الشعراء ص176، وتهذيب ابن عساكر 424/7.

(2) نقبت: من نقب البعير إذا حفي ورقت أخفافه. دبرت: أصابها جرح في ظهرها. ارقعها بجلد: اجعل لها خفاً من جلد. الهلب: الشعر. الخصف: الخرز. أي ان يخرز الخف به ليقيه، البردين: الغداة والعشي. إن: هنا بمعنى نعم.

(3) الاغاني 71/12، القلوص: الناقة الفتية. الصفاد: القيد. وما يشد به الأسير.

الحجاج بمكة سنة 73هـ، وهكذا قضي على الحزب الزبيري الذي لم يدم طويلاً غير تسع سنوات.

لم يحظ عبدالله بن الزبير بمديح الشعراء والدفاع عنه وتمثيل فكرته، غير شاعر واحد هو عبدالله بن قيس الرقيات، الذي كان يدافع عن حق القرشيين في الخلافة وأن يكون الأكفأ من قريش هو الخليفة المستجاب المطاع، وظل ينافح عن الحزب الزبيري، حتى إذا أفل نجمهم ودالت دولتهم التجأ إلى بني أمية يمدحهم ويدافع عن حكمهم ويهجو خصومهم، لأن الأمويين من قريش والخلافة حق لقريش.

أما بقية الشعراء ممن مدح الزبيريين فكان مديحهم لمصعب بن الزبير الفارس الشهم الكريم، ولم يكن لأخيه عبدالله إلا النصيب القليل لأنه كان ضنيناً لم يوسع على من حوله بالمال الذي يقرب الطامعين ويكسب الأنصار والموالين.

وكان شعر ابن الرقيات قد سجل الأحداث التي مرت بالمسلمين في عهد آل الزبير وصراعهم مع بني أمية، فهو يذكر ما نزل بأهل الحجاز حين غزا جيش يزيد المدينة واستباحها أهل الشام في وقعة الحرة، فهو يبكي قتلاها وما نزل بأهلها بكاء حاراً فيه صورة للفجيعة وعظم المصيبة، وكان ممن قتل فيها طائفة من أهل بيته من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبدالله فيقول[1]:

---

(1) ديوان ابن قيس الرقيات، تحقيق: محمد يوسف نجم (دار صادر- بيروت)، ص98- 100. المروة : حجر أبيض تقدح منه النار، الجب: قطع السنام ، يزيد الرجل الذي نعاهما اليه، بنو عبد: عشيرته وأبناء أخيه.

إن الحـــوادث بالمدينـــة قـــد أوجعـــنني وقـــرعن مرويتَـــه

وجببـــنني جـــب السنام فلـم يتركـــن ريشـــاً في مناكبيـــه

وأتـــى كتـاب مــن يزيـد وقــد شـــد الحـــزام بســرج بغلتيــه

ينعـــى بـــني عبــد وإخـــوتهم حـــل الهـــلاك علـــى أقاربيـــه

ونعـــى أســـامة لـــي وإخوتـــه فظللـــت مســـتكاً مسامعيه

تبكـــي لهـــم أسمـــاء معولـــة وتقـــول ليلـــى: وارزيتيـــه

والله أبـــرح في مقدمـــــة أهـدي الجيـوش علـي شـكتيه

حتـــى أفجعهـــم بـــإخوتهم وأســـوق نســـوتهم بنســـوتيه

وابن الرقيات يذود عن آل الزبير ويدافع عن قريش، ويرد على الفرق التي تريد الشر بقريش، وإن اجتماع أمر قريش هو خير للعرب والمسلمين، وهو يحمل على الأمويين الذين فرقوا كلمة الأمة وآذوا قريشاً ويتمنى زوال ملكهم وهو حين يمدح مصعباً فهو يمدح قريشاً لأن مصعباً ابن حواري رسول الله ﷺ، يقول في الاعتزاز بقريش وبيان فضائلها والتحسر على من رحل منها، وهي قصيدة طويلة نجتزئ منها(1):

أقفـرت بعـد عبـد شمـس كـداء فكـــدي فـــالركن فالبطحـــاء

فمنـى فالجمـار مـن عبـد شمـسٍ مقفـــرات فبلـــدح فحـــراء

(1) الديوان ص78- 96 . كداء وكدي: جبلان بمكة، الركن: ركن البيت الحرام. البطحاء: بطحاء مكة، منى: جبل بمكة وهو موقف الحج. الجمار: موضع رمي الحجار، جمع جمرة. بلدح: واد عند الجراحية في طريق التنعيم بمكة . حراء: جبل بمكة.

وبعد أن يعدد الأماكن التي هجرها الأمويون وذهبوا إلى الشام، ويحزن لتفرق قريش وشماتة الشامتين بها والطامعين بفقرتها من بقية القبائل، يقول:

خبذا العيش حين قومي جميع ... لم تفرق أمورها الأهواء

قبل أن تطمع القبائل في ملـ ... ـك قريشٍ وتشمت الأعداء

أيها المشتهي فناء قريشٍ ... بيد الله عمرها والفناء

إن تودع من البلاد قريشٌ ... لا يكن بعدهم لحي بقاء

هل ترى من مخلدٍ غير أن اللـ ... ـه يبقى وتذهب الأشياء

لم نزل آمنين يحسدنا النا ... س ويجري لنا بذاك الثراء

قد عمرنا فمت بدائك غيظاً ... لا تميتين غيرك الأدواء

لو بكت هذه السماء على قو ... مٍ كرامٍ بكت علينا السماء

نحن منا النبي الأمي والصديـ ... ـق منا التقي والخلفاء

وبعد أن يعدد شهداء قريش حمزة وعلي وجعفر بن أبي طالب ينتقل إلى مديح مصعب والإشادة بفضائله وبطولاته:

إنما مصعب شهابٌ من اللـ ... ـه تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك قوة ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء

يتقي الله في الأمور وقد أفـ ... ـلح من كان همه الاتقاء

وبعد أن يعدد فضائل رجالات قريش ويفيض في ذلك، يسخط على الأمويين وما فعلوه بالمسلمين في وقعة الحرة وحصار مكة وقتل الحسين في

كربلاء، والتنكيل بالناس فيحرض على حريهم بغارة شعواء لا تبقى ولا تذر[1]:

كيف نومي على الفراش ولما	تشمل الشام غارةٌ شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي	عن براها العقيلة العذراء
أنا عنكم بني أمية مزو	رٌ وأنتم في نفسي الأعداء
إن قتلى بالطف قد أوجعتني	كان منكم لئن قتلتم شفاء

ويحاول ابن قيس الرقيات أن ينال من الأمويين فيتغزل غزلاً كيدياً ليغضبهم، فتغزل بعاتكة زوجة عبد الملك بن مروان، وأم البنين زوجة ابنه الوليد، ويجعل المرأة في هذا الغزل مبتذلة تلاحقه وتغازله، يصور في أبيات أم البنين وقد جاءته في الحلم منها ونالت منه دون طهر أو عفاف وكأنها من بنات الليل، يقول[2]:

أتتني في المنام فقلـ	ـت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بها	ومال علي أعذبها
شربت بريقها حتى	نهلت وبت أشربها
وبت ضجيعها جذلا	ن تعجبني وأعجبها
وأضحكها وأبكيها	وألبسها وأسلبها

(1) البرى: الخلاخيل، وقد كنى بذلك عما يصيبهن من فزع شديد أثناء الهرب، الطف: من ضواحي الكوفة حيث كربلاء التي قتل فيها الحسين.

(2) الديوان ص122- 123. أعقبها : أي صارت عقباها لي أي صارت إلي. أعذبها : فمها . نهلت :رويت. أشربها : أسقيها. جذلان: فرح، يرقبها: أي يرقب الصلاة.

أعالجهــــا فتصـــــرعني ... فأرضـــيها وأغضـــبها
فكانــــت ليلــةً في النـــو ... م نســـمرها ونلعبهـــا
فأيقظنــــا منــــادٍ في ... صـــلاة الصــبح يرقبهـــا

وبعد أن يزول ملك الزبيريين تضيق بالشاعر دنياه فيتوارى فترة ثم يشفع له الشافعون لدى عبد الملك فيعفو عنه ويمثل بين يديه يمدحه ويشيد ببني أمية في مثل قوله[1]:

مــا نقمـوا مــن بـني أميــة إلا ... أنهـــم يحلمـــون إن غضـــبوا
وأنهـــم معـــدن الملـــوك فــلا ... تصــــلح إلا علـــيهم العـــرب
إن الفنيــق الـــذي أبــوه أبــو الــ ... ـعاصي عليــه الوقــار والحجــب
خليفـــة الله فـــوق منـــبره ... جفــت بــذاك الأقــلام والكتــب
يعتـــدل التـــاج فـــوق مفرقـــه ... علـــى جـــبينٍ كأنـــه ذهـــب

ولم يعجب عبد الملك هذا المديح مقارنة بمديح الشاعر لمصعب بن الزبير الذي وصفه " بشهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء"، فولى الشاعر وجهه إلى مصر يمدح الوليد بن عبد الملك وغيره من أمراء بني أمية.

كان عبيد الله بن قيس الرقيات هو الشاعر الوحيد الذي مثل الحزب الزبيري وكان شاعرهم المنافح عنهم، والمشيد بأفعالهم وسجاياهم، ولكن هناك بعض الشعراء كانوا يمدحون عبدالله بن الزبير وأخاه مصعباً إما تعصباً

(1) الديوان: ص4- 5. معدن الملوك: أصل الملوك. الفنيق: الفحل المكرم من الإبل . أبو العاصي : جد عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص.

قيسياً ضد اليمانية الذين ناصروا بني أمية، أو مدحوهم طلباً للمكافأة والعطاء فممن انضم إلى ابن الزبير وناصره عصبية، زفر بن الحارث الكلابي، الذي حزن على هزيمة جيش ابن الزبير في مرج راهط سنة 64هـ وكان زفر وقومه والقيسية في جيش ابن الزبير، وكانت كلب بزعامة حسان بن مالك الكلبي حاكم الأردن في جيش مروان بن الحكم، فقال زفر[1]:

أريني سلاحي لا أبا لك إنني … **أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا**

أتاني عن مروان بالغيب أنه … **مقيد دمي أو قاطع من لسانيا**

ففي العيش منجاةٌ وفي الأرض … **إذا نحن رفعنا لهن المثانيا**

فلا تحسبوني إن تغيبت غافلاً … **ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا**

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى … **وتبقى حزازات النفوي كما هيا**

ويقول زفر في مرج راهط أيضاً مهدداً ومتوعداً[2]:

أفي الله أما بحدل وابن بحدل … **فيحيا وأما ابن الزبير فيقتل**

كذبتم وبيت الله لا تقتلونه … **ولما يكن يوم أغر محجل**

ولما يكن للمشرفية فوقكم … **شعاعٌ كقرن الشمس حين ترجل**

---

(1) الطبري 41/6 ، مروج الذهب107/2. مقيد دمي: مهدر له. العيس: الإبل المخالطة بشقرة. المثاني: المراد هنا الأرسان . دمن الثرى: أماكن الأنعام وحظائرها.

(2) الطبري 42/6. بحدل : أبو ميسون الكلبية زوجة معاوية . يوم أغر محجل: أي فيه نصر عظيم. المشرفية : السيوف. قرن الشمس : شعاعها. ترجل : تترجل وترتفع.

ومن مدح عبدالله بن الزبير طلباً للصلة والعطاء النابغة الجعدي، الذي رأي في ابن الزبير شبهاً بالخلفاء الراشدين في عدله وإحسانه وهو صورة مغايرة للخلفاء الأمويين، يقول[1]:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا	وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس في العدل	فعاد صباحاً حالك الليل مظلم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى	دجى الليل جواب الفلاة عثمثم
لتجبر منه جانباً ذعذعت به	صروف الليالي والزمان المصمم

وبعد: فقد كان شعر الزبيريين قليلاً لقلة الشعراء الذين تابعوا ابن الزبير، وكان شاعرهم الوحيد الذي آمن بأحقيتهم بالخلافة هو عبيد الله ابن قيس الرقيات، وأكثر شعره قاله في التمجيد والدفاع عن آل الزبير، أما بقية الشعراء الذين ناصروا الزبيريين فكانت دوافعهم العصبية القبلية القيسية ضد الكلبية واليمنية التي انضمت إلى الأمويين،أو ان مدحهم لآل الزبير كان طلباً للصلة والعطاء، ولو كان عبدالله بن الزبير كريماً معطاءً كأخيه مصعب،أو لو كمان أحسن إلى الشيعة وتألفهم وكذلك لو تألف الخوارج وكلا الشيعة والخوارج من أعداء الأمويين، لو فعل ذلك أو بعض ذلك لتغير وجه دولتهم، ولم تندثر في عقد من الزمان[2].

(1) ديوان النابغة الجعدي ص151- 152. تجقيق واضح الصمد، ط دار صادر، بيروت، 1998. سويت: عدلت. أبو ليلى: كنية النابغة . يجوب : يسير. العثمثم : الجمل القوي الشديد ذعذعته: ذهبت بماله وفرقت حاله، صروف الليالي: مصائبها . المصمم: الشديد على الأذى والضر.

(2) الشعر الإسلامي الأموي، يحيى الجبوري، (مؤسسة الرسالة- بيروت) 2005. ص216- 226.

إن بـوادر الخـلاف حـول الحكـم وظهـور النزعـات والعصبيات القبليـة والمذهبية، التي أدت فيما بعد إلى نشوء الأحزاب السياسية، قد نبتت بذورها منـذ وفـاة الرسـول ﷺ في يـوم السقيفة، سقيفة بـني سـاعدة، فقـد ظهـرت فكرتان، الأولى فكرة الوراثة لآل البيت أو لقريش عامة، وفكرة الانتخاب العام التي مثلها الأنصار، ثم مثلها في وضوح أشد، الخوارج فيما بعد، أما فكرة الوراثة فقد تمثلت في النزاع بين بني أمية وبني هاشم، والنزاع بين بني أمية وبني هاشم قديم منذ الجاهلية، فلما جاء الإسلام فازت هاشم بسبقها إلى الإسلام، وبأن الرسول ﷺ منها، وزوج الرسول ﷺ عثمان بن عفان الأموي بابنتيه الهاشميتين، وقيل إنه فعل ذلك رغبة منه في حسم الخلاف بين فرعي عبد مناف[1].

فلما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان رأى الأمويون أن الفرصة قد سنحت ليستردوا سلطانهم الذي كان لهم في الجاهلية وليستأثروا بالخلافة دون بني هاشم، وكان لسياسة عثمان اللينة وتقريب الأقارب وتوليتهم على الأمصار ان امتد سلطانهم، ومن ثم أدت هذه السياسة إلى استفحال النقمة على عثمان وأدت إلى مقتله، فلما قُتل عثمان بويع علي بن أبي طالب بالخلافة، ولكن الأمور لم تستقر لعلي إذ انشق عليه معاوية واستقل بالشام بحجة المطالبة بالاقتصاص من قتلة عثمان، ونقض البيعة كذلك أعيان بني أمية وهربوا إلى مكة والبصرة ودمشق، وكان من المنشقين أيضاً طلحة والزبير اللذين بايعا علياً ثم استأذناه لأداء العمرة فأذن لهما فلحقا بمكة وانضمت

(1) أدب الخوارج في العصر الأموي: سهير القلماوي ص8، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة1945.

إليهما عائشة وكانت بمكة، وجمعوا معهم الجموع وساروا إلى البصرة ودعوا إلى القتال والثأر لعثمان، وسار علي بجيشه إلى البصرة وكانت حرب الجمل التي انتهت بقتل طلحة ثم الزبير وعودة عائشة نادمة[1].

ثم توجه علي بن أبي طالبعليه السلام إلى الكوفة ليقاتل معاوية ومن معه الذين خرجوا على إجماع المسلمين في خلافة عليّ، والتقى الجيشان في سهل صفين سنة 36هـ، وكانت الكفة الراجحة لجيش علي، وهم معاوية نفسه بالفرار، ولكن قائده عمرو بن العاص احتال إلى دعوى التحكيم ورفع المصاحف والاحتكام إلى كتاب الله، ونادى المنادون في جيش معاوية : " الله الله في العرب، الله الله في الإسلام، كتاب الله بيننا وبينكم"، ووجد هذا النداء صدى في فريق من جيش علي، ودعوه إلى الرضا بدعوة أهل الشام، فأبى علي وقال لهم أن الأمر خدعة بعد أن كان لنا النصر، وأن هؤلاء تحايلوا بعد أن أيقنوا بالهزيمة، ولكن الرؤساء من جيش علي أصروا على أن يستجيب إلى التحكيم والجنوح إلى السلم، وانقسم جيش علي إلى فريقين، فريق يريد القتال ويعم أن التحكيم خدعة، وفريق يريد القبول بنداء أهل الشام، وتغلب الفريق الثاني وهم الكثرة فاستجاب لهم علي.

وكان التحكيم، وكان علي يريد أن يكون حكمه عبدالله بن عباس أو الأشتر النخعي، وأصر أصحابه أن يكون أبو موسى الأشعري هو الحكم، وأبو موسى رجل تقي مسن لا حيلة ولا دهاء، وكان حكم أهل الشام الداهية عمرو بن العاص، واجتمع الحكمان في أذرح، واتفقا على أن يحقنا دماء

(1) تاريخ الطبري وابن الاثير حوادث سنة 36هـ، وانظر آدب السياسة في العصر الأموي، احمد الحوفي ص14 وما بعدها.

المسلمين بعزل علي ومعاوية وترك الأمر شورى للمسلمين يختارون للخلافة من يرضونه، وأقنع عمرو أبا موسى أن يتقدم لكبر سنه وسابقته في الإسلام ليخلع صاحبه، وتقدم أبو موسى فقال فيما يروي الرواة : " إني أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية"، وهكذا انطلت الحيلة على أبي موسى الرجل التقي وأسقط في يده، وبدأت الفتنة في جيش علي[1].

وعاد علي إلى الكوفة ومعاوية إلى الشام، وثارت الفتنة في جيش علي، فمنهم فريق كبير ساخط على التحكيم ومتحلل من بيعة علي، وهم الخوارج وكانوا يشاتمون من رضي بالتحكيم قائلين: " يا أعداء الله، ادهنتم في أمر الله عز وجل وحكمتم، ويقول الآخرون : فارقتم إمامنا وفارقتم جماعتنا " [2]، وخرج من هؤلاء الساخطين على التحكيم اثنا عشر ألفاً إلى حروراء وسموا الخوارج، فحاربهم علي في عدة مواقع، ثم ائتمر بعد ذلك ثلاثة منهم بمكة هم: عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبدالله، وعمرو بن بكر التميمي، وتعاهدوا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، وقتل عبد الرحمن بن ملجم علي بن أبي طالب، ونجا معاوية وعمرو بن العاص.

وظل الخوارج يقاتلون من يخالفونهم طيلة الحكم الأموي، وكثرت حروبهم ولهم وقائع كثيرة مع الحجاج وولاة الأمويين، وكثيراً ما هزمت قلتهم جموع الجيوش المقاتلة، وقد ظهرت للخوارج كان أشهرها الأزارقة والنجدات والإباضية والصفرية.

---

(1) انظر في أحداث صفين الطبري والكامل لابن الاثير أحداث سنة 36هـ، ومروج الذهب 33/2، ووقعة صفين لنصر بن مزاحم في صفحات متعددة.

(2) الطبري 35/6.

ويتلخص فكرهم السياسي في أن الخلافة تكون في المسلم الذي يجتمع فيه العلم والعدل والزهد، فليس يشترط في الخليفة أن يكون عربياً كما تذهب بقية الأحزاب، ولا يشترط أن تكون قريشاً كما يرى الزبيريون، ولا من بني هاشم كما يقول الشيعة، ولا من بني أمية كما يدعي الأمويون[1].

أما فكرهم الديني فكانوا يرون أن الدين عقيدة وعمل، وهم تقاة زاهدون عابدون، يقاتلون في سبيل الله، أشداء على من يخالفهم يقاتلونهم ويكفرون مخالفيهم وقد بالغوا وغلوا في ذلك فاستحلوا دماء المسلمين ممن لم يكونوا من نحلتهم، وشعرهم صورة صادقة لسيرتهم وإيمانهم، وهو شعر ثورة وجهاد وفداء والسعي إلى الموت طلباً للشهادة، وقد بلغ بهم الأمر ان من يطعن ويوقن بالموت منهم يفرح بنيل الشهادة قائلاً: (وعجلت إليك رب لترضى)، وشعرهم صورة صادقة لحياتهم فهو شعر حرب وجهاد ليس فيه شيء من حب الدنيا أو الطمع في متاعها، وفي النماذج الآتية من شعرهم صورة لحياتهم وطبيعة شعرهم.

يقول يزيد بن حبناء وهو من الأزارقة[2]:

أبيتُ وسرِبالي دلاصٌ حصينةٌ ... ومغفرها والسف فوق الحيازم

أريدُ ثواب الله يوماً بطعنةٍ ... غموسٍ كشدق العنبري بن سالم

(1) الملل والنحل 107/1، نقد العلم والعلماء ص102.

(2) ديوان شعر الخوارج 299، الدلاص : الدرع الملساء. المغفر: زرد يلبس تحت القلنسوة أو حلق يتقنع به الفارس. غموس: واسعة . العنبري بن سالم: أحد الأزارقة يقال له الأشدق لسعة فمه.

وجل شعرهم مقطوعات شعرية، وهي تعبير عن عواطفهم وخلجات أنفسهم لا تفنن فيها ولا صناعة، وأكثر شعرهم قالوه على البديهة وفي ساحات القتال، من ذلك قول قطري بن الفجاءة محدثاً نفسه(1):

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال ويحك لن تُراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عزٍّ ... فيطوي عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي ... فداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ في حياةٍ ... إذا ما عد من سقط المتاع

ويرى الخوارج أنهم يحاربون الجور والظلم والولاة الظالمين، بعد أن جاروا على المؤمنين أهل الحق والهدى، يقول أبو بلال مرداس بن أدية(2):

وقد أظهر الجور الولاة وأجمعوا ... على ظلم أهل الحق بالغدر
وفيك إلهي إن أردت مغير ... لكل الذي يأتي إلينا أبو صخر
فقد ضيقوا الدنيا علينا برحبها ... وقد تركونا لا نقر من الذعر
فيا رب لا تسلم ولاتك للردى ... وأيدهم يا رب بالنصر والصبر

---

(1) شعر الخوارج ص122- 123. طارت شعاعاً: تفرقت وانتشرت من الخوف. أخو الخنع: الذليل. اليراع: الجبان. يعتبط: يموت من غير علة. يسأم: يمل من الهرم وتكاليفه.

(2) المصدر نفسه، ص65، سخر: اسم أبي سفيان بن حرب. العدد الدثر: الكثير.

ويسـر لنـا خـيرا ولا تحرمننـا لقـاء ذوي الإلحـاد في عـدد دثـر

وفي شعر الخوارج رثاء ينصب على ذكر تقى الشهيد ورغبته في الشهادة وتمني أن يلحقه الله به شهيداً، يقول عمرو بن حصين في رثاء عبدالله بن يحيى ومن قتل من أصحابه:

يـارب أسـلكني سـبيلهم ذا العـرش واشـدد بـالتقى أزري[1]

في فتيـةٍ صـبروا نفوسـهم للمشـرفية والقنـا السـمر

متـأهبون لكـل صـالحةٍ نـاهون مـن لاقـوا عـن النكـر

كـم مـن أخٍ لـك فجعـت بـه قـوام ليلتـه إلى الفجـر

متأوهـا يتلـو قـوارع مـن آي القـران مفـزع الصـدر

وليس للخوارج هم في الحياة إلا العبادة والخشية من الله وخوف العذاب، وقتال الضالين، وهم في حروبهم مقاتلون شجعان لا يخشون الموت بل يسعون إليه، يقول عمرو بن الحصين يصور أحوالهم[2]:

متـأوهون كـأن جمـر غضـاً للخـوف بـين ضـلوعهم يسـري

تلقـاهم ألا كـأنهم لخشـوعهم صـدروا عـن الحشـر

وهـم مسـاعر في الـوغى رجـح وخيـار مـن يمشـي علـى العفـر

حتـى وفـوا لله حيـث لقـوا بعهـود لا كـذب ولا غـدر

---

(1) شعر الخوارج ص247- 248. المشرفية : السيوف التي تصنع في مشارف الشام وغيرها.

(2) المصدر نفسه ص248- 250. ألا: من ال يئل أي حن وأن ورفع صوته بالدعاء، مساعر: جمع مسعر وهو الشجاع. رجح : أي عقلاء أهل رزانة . العفر: التراب.

وكان من الخوارج من يرون جواز القعود عن القتال مع إيمانهم بعقيدة الخوارج، وقد أجاز الصفرية القعود ولم يكفروا القاعدين، ومن هؤلاء عمران بن حطان ويقال إنه اعتنق مذهب الخوارج وهو كبير السن، وقيل بل قعد حباً لزوجته جمرة فقد كان يحبها حباً شديداً، وممن التمسوا عذراً في القعود خوفاً على بناتهم أبو خالد القناني، وقد كتب إليه قطري بن الفجاءة يحرضه على الخروج، يقول[1]:

أبا خالد يا انفر فلست بخالدٍ ... وما جعل الرحمن عذراً لقاعدِ

أتزعم أن الخارجي على الهدى ... وأنت مقيم بين لص وجاحد

فكتب إليه أبو خالد عيسى بن فاتك الخطفي يبرر قعوده[2]:

لقد زاد الحياة إلي حباً ... بناتي إنهن من الشعاف

أحاذر أن يرين الفقر بعدي ... وأن يشربن رنقاً بعد صاف

وأن يعرين إن كسي الجواري ... فتنبو العين عن كرم عجاف

وأن يضطرهن الدهر بعدي ... إلى جلف من الأعمام جاف

ولولا ذاك قد سومت مهري ... وفي الرحمن للضعفاء كاف

ولم يكن الرجال يقاتلون وحدهم بل إن بعض النساء كن فارسات مقاتلات يخرجن لساحات الوغى ويتمنين الشهادة قصعاً بالرماح والسيوف، ومن هؤلاء المرأة الموصوفة بالجمال والشجاعة أم حكيم زوجة قطري بن الفجاءة، التي كانت تقاتل إلى جنب زوجها وهي ترتجز طالبة الشهادة[3]:

---

(1) شعر الخوارج ص119- 120.

(2) المصدر نفسه، ص71، الرنق: الكدر. عجاف: جمع عجفاء: المرأة الهزيلة.

(3) شعر الخوارج ص142.

أحمـل رأسـاً قـد سـئمت حملـه وقــد مللــت دهنــه وغســله

ألا فتى يحمل عني ثقله

أما غزالة الفارسة الجريئة المقاتلة زوجة شبيب الخارجي، فقد نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيهما البقرة وآل عمران، فدخلت الكوفة مع زوجها، وخشيها الحجاج على جبروته وقوته، فتحصن منها وأغلق عليه قصره، وصار خوف الحجاج منها سبة تلاحقه يعير بها، يقول عمران بن حطان يخاطب الحجاج وكان قد طلبه[1]:

أسـدٌ علـي وفي الحـروب نعامـة ربـداء تنفـر مـن صـفير الصـافر

هـلا بـرزت إلى غزالـة في الـوغى بـل كـان قلبـك في جنـاحي طـائر

صـدعت غزالــة قلبــه بفــوارس تركـت منـابره كـأمس الـدابر

ألق السـلاح وخذ وشاحي معصرٍ واعمـد لمنزلـة الجبـان الكـافر

وقد ذكر الخوارج نساءهم وحنوا إليهن، ولكن ليس كما يفعل الشعراء في الغزل، بل يذكرون صفاتهم من العفة والحياء والتقى، والمرأة حريصة على زوجها قد تشفق عليه من الخروج إلى القتال وتعاتبه ولكن نداء الشهادة أقوى من نداء الزوجة وإشفاقها، يقول زياد الأعسم[2]:

تعـاتبني عرسـي علـى أن أطيعهـا وقبـل سليمى مـا عصيت الغوانيـا

فكفي سليمى واتركي اللوم إنني أرى فتنــة صــماء تبــدي المخازيـا

(1) المصدر نفسه، ص184. المعصر: الفتاة التي بلغت شبابها.

(2) المصدر نفسه، ص208. عزين: جماعات، مفردها عزة، وهي العصبة من الناس.

فكيف قعودي والشراة كما أرى		عزين يلاقون البلايا الدواهيا

وهم في الحرب يتذكرون نساءهم ويودون لو يعلمن ماذا يفعلون من بطولات ويسجلون من مفاخر[1]:

وسائلة بالغيب عني ولو درت		مقارعتي الأبطال طال نحيبها

إذا ما التقينا كنت أول فارسٍ		يجود بنفسٍ أثقلتها ذنوبها

ولا يخلو شعر الخوارج من الحكمة والتأمل في مصير الإنسان والحياة والموت وما يصير حاله في ساعة الحساب يوم لا ينفع مال ولا بنون، يقول الطرماح بن حكيم من قصيدته التي أولها[2]:

طال في رسم مهدد ربده		وعفا واستوى به بلده

يقول:

ترك الدهر أهله شيعاً		فاستمرت من دونهم عقده

وكذاك الزمان يطرد بالنا		س إلى يومه وغده

كل حي مستكمل عدة العمر		ومودٍ إذا انقضى أجله

عجباً ما عجبت من جامع الما		ل يباهي به ويرتفده

ويضيع الذي يصيره الله		إليه فليس يعتقده

يوم لا ينفع المخول ذا الثر		وة خلانه ولا ولده

---

(1) شعر الخوارج ص151.

(2) ديوان الطرماح ص138- 140، مهدد: اسم امرأة. ربدة: إقامته، من ربد في المكان، إذا أقام. شيعاً: متفرقين. مود: هالك. يرتفده: يكسب المال. المخول: الذي خوله الله المال والخدم. اللدد: شدة الخصومة واللجاج. يستتع: يتمادى. الفند: الحمق. متى يأن: أي يبلغ أوانه.

ثـم يـؤتى بـه وخصـماه وسـط الـ ـــجن والإنـــس رجلـــه ويـــده

خاشـع الطـرف لـيس ينفعـه ثــ ــــم أمانيــــــه ولا لــــــدده

قـل لبـاكي الأمـوات لا يبـك للنـا س ولا يســـــتنع بـــه فنـــده

إنمـــا النـــاس مثـل نابتــة الــزر ع متـــى يـــأن يـــأت محتصـــده

وبعد، فخلاصة القول في شعر الخوارج وخصائصه انه شعر بطولة وفروسية وجهاد، وتصوير لبطولتهم وشجاعتهم، وحض وتحريض على الثورة وقتال المخالفين وتكفيرهم مع دعوة لمذهبهم واحتجاج له ودفاع عنه، ويشيع في ثناياه الزهد والتقوى وحرارة الإيمان وصدق العاطفة والخوف من يوم الحساب، ويكثر فيه رثاء قتلاهم والتفجع على فقدهم والإشادة ببطولتهم وتقواهم، والتمني ان يلحقوا بهم وينالوا ما نالوه من شرف الشهادة والفوز بجنان الخلد، وهو شعر قوم آمنوا بقضيتهم وأخلصوا لمذهبهم فكانت دعوتهم خالصة مما يشوب المذاهب الأخرى من عصبيات جنسية أو قبلية، فهم من قبائل شتى من عرب وعجم، ولم يفرق بينهم حسب ولا نسب ولا جنس ولا لون.

وأكثر شعرهم مقطعات لأنهم يقولونه عفو الخاطر أثناء المعارك أو بعدها في رثاء قتلاهم أو عند المحاججة والمجادلة، أو التأمل في حال الدنيا وأحوال المسلمين وخصومهم من الحكام الجائرين، وما دامت قضيتهم واحدة وهمومهم واحدة وموضوعاتهم محدودة، فقد جاء شعرهم متشابهاً وقد ينسب احدهم لآخر من شعرائهم ويظهر اثر القرآن الكريم واضحاً في شعرهم، فهو شعر إيمان وعبادة وتقى،وعقيدة خالصة صافية لا يشوبها ما شاب المذاهب الأخرى من انحراف ووهم وخرافة[1].

(1) الشعر الإسلامي والأموي، ص195- 206.

عمران بن حطان

بصريٌّ سدُ وسيٌّ من شيبان، نشأ على الفقه والورع، وقد أدرك صدراً من الصحابة وروى عنهم، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل في مقالة الخوارج، ونقلناه في عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه[1]، ولا يلبث قبله قبله أن يتعلق بابنة عم له تسمى جمرة، كانت خارجية فتزوجها، وأراد ان يردها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه، ويقال إنها كانت ذات جمال، وكان قبيحاً دميماً، ويروى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت في الجنة، قال: ومن أين علمت ذلك؟ قالت: لأنك أُعطيت مثلي فشكرت، وابتليت بمثلك فصبرت، والشاكر والصابر في الجنة.

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحت جزءاً من نفسه، فهو يعيش لها ويعيش بها، ويشيد بأصحابها حتى بأشقاهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب، وفي طعنته له يقول:

يا ضربةٌ من تقى ما أراد بها   إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره حيناً فأحسبه   أوفى البرية عند الله ميزانا

ونراه يتأثر تأثيراً بليغاً حين قُتل أبو بلال مرداس سنة 61 للهجرة، حتى ليفكر في الخوارج وامتشاق الحسام، يقول:

لقد زاد الحياة إلى بغضاً   وحباً للخروج أبو بلال

(1) البيان والتبيين 118/1.

أحاذر أن أموت على فراشي ... وأرجو الموت تحت ذرى العوالي[1]

ولو أني علمت بأن حتفي ... كحتف أبي بلالٍ لم أُبال

فمن يك همه الدنيا فإني ... لها والله رب البيت قالي[2]

فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه، ولا يموت ميتة الخوارج الشريفة قعصاً بالرماح، ميتة أبي بلال، وقط ظلت ذكراه عالقة بنفسه طويلاً، حتى ليقول:

أنكرت بعدك من قد كنت ... ما الناس بعدك يا مرداس بالناس

وكأن الناس جميعاً ما توافيه، ولم يخرج عمران، فقد كان يؤمن بالقعود، ومن ثم اعتنق نذهب الصفرية ودعا إلى القعود، حتى عد رئيس قعدتهم، ولم تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبي خالد[3]، إنما قعد به – في اغلب الظن- حبه لزوجته جمرة، فقد كان يشغف بها شغفاً شديداً ويعلل أبو الفرج ذلك علة أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة، لأن عمره طال وعجز عن الحرب وحضورها، وكأنه يرى انه اعتنق المذهب في سن عالية، على انه إن كان قد مضى في شعره يصور كرهه للحياة وانها عبء ثقيل كما مضى يحسن لغيره الخروج ويزينه، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشركون في الحروب ويغرون بها رفاقهم، ويظهر انه تمادى في ذلك لعهد الحجاج، فطلبه

---

(1) العوالي: الرماح.

(2) قالي: كاره.

(3) نسبت أبيات ابي خالد في ترجمته في كتاب (الأغاني).

ولم يلبث شبيب الصفري وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة في بعض أصحابها فهلع الحجاج وتحصن في قصره، فكتب إليه عمران:

أسدٌ علي وفي الحروب نعامةٌ ربداء تنفر من صفير الصافر[1]

هلا برزت إلى غزالة في الضحى بل كان قلبك في جناحي طائر[2]

وغضب الحجاج واشتد في طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبته سنة 77للهجرة ففر منه على وجهه يتنقل في القبائل منتسباً في كل حي نسباً يقرب منه، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل في سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زنباع الجذامي بالشام، فانتسب له أزديا فأنزله منزلا آمناً نحو عام وبالغ في إكرامه، وكان روح سميرا لعبد الملك أثيراً عنده، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره، فرأى عبد الملك فيها ما شككه في أن صاحبه عمران، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك، فقال له: ذلك ما كنت أريد، وإني تابعك إليه على الأثر، ولم يلبث أن ارتحل مخلفاً لروح رقعة يقول فيها:

قد كنتُ جارك حولا ما تروعني فيه روائع من إنس ومن جان[3]

حتى أردت بي العظمى فأدركني ما أدرك الناس من خوف وابن

ومضى حتى نزل بزفر بن الحارث في قرقيسيا، فانتسب له أوزاعياً، وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح، فلما قال له زفر هل

(1) ربداء: من الربدة وهو لون الى الغبرة.

(2) هذا مثل ضربة عمران لتصدير فزع الحجاج ورعبه.

(3) روائع من الروع وهو الخوف والفزع.

تعرفه؟ قال : نعم أزدي رأيته عند روح، حينئذ قال له زفر يا هذا أزديا مرة وأوزاعياً أخرى؟ إن كنت خائفاً آمناك وإن كنت فقيراً جبرناك، فلما أمسى هرب وخلف في منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بديعة يستهلها بقوله:

إن التي أصبحت يحيى بها زفر   أعيت عياء على روح بن زنباع

وارتحل حتى أتى عمان، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على الحجاج، فطلبه، فارتحل حتى أتى قوما من الأزد في روزميسان بالقرب من الكوفة، فأقام بينهم حتى توفي سنة 84هـ [1].

يتميز شعر الخوارج بأن جلّه قد جاء قطعاً شعرية وذلك لأن شعرهم كان انعكاساً لحياتهم التي عاشوها، وهي حياة تزخر بصور الجهاد والنضال في سبيل ما اعتقدوه وشعراء هذه هي حياتهم لن تجد لديهم ذلك البناء التقليدي الذي كان الشعراء ينظمون فيه قصائدهم، ومن ثم جاء شعرهم نفثات ارتجالية عبرت عن مواقفهم المختلفة في حياتهم الحزبية والعقائدية التي عاشوها.

ويعد عمران بن حطان أحد شعرائهم الذين تميزوا بهذا الاتجاه في الشعر، فلم يصل إلينا من شعره سوى القطع وهي قطع تمثل في اغلبها مواقف خاصة عاشها في حياته وقد جاء التعبير فيها عن تلقائية وسجية، ولذلك جاءت متحدة في صورها وأفكارها مع سلاسة في اللغة، وصدق في الشعور يؤكد التمسك بالمبدأ الخارجي.

---

(1) العصر الإسلامي، ص307- 309.

وعمران بن حطان هذلي شيباني من بكر بن وائل بن ربيعة، أحد شعراء الخوارج المقدمين في مذهبهم، وكان من القعدة غير الخارجين للقتال، ولكنه كان يحرض على الدعوة للخروج بشعره، وكان مطلوباً من قبل بني أمية أيام عبد الملك بن مروان والحجاج، وظل متخفياً يتنقل بين الأقاليم الإسلامية حتى انتهى به المطاف قرب الكوفة موضع يقال روذ ميسان فمات به سنة 84هـ[1].

والقطعة التي اخترناها له تمثل بناء الخوارج لقطهم الشعرية، وهي قطعة لها حدث دفع إلى قولها، رواه أبو الفرج في الأغاني، وتمثل في ان عمران بن حطان كان تخفيه من سلطان بني أمية قد نزل على روح بن زنباع الجذامي بالشام، وانتسب إليه أزدياً، وظل يعيش ضيفاً عليه قرابة الحول، غير ان عبد الملك بن مروان علم بمكان عمران عند روح بن زنباع فطلب من روح ان يستدرجه إلى المجيء إليه، وفطن عمران لما يدبر له ففر تاركاً هذه القطعة التي تدل على دفقة شعورية في موقف عاشه الشاعر فعبر عنه في قوة وصدق.

والقطعة رواها المبرد في الكامل ضمن ما روى من شعر الخوارج وأخبارهم[2]، ورواها أبو الفرج في ترجمته لعمران بن حطان[3]، وهي تصور وموقف عمران بن حطان من روح بن زنباع حين هرب من جواره وتصور حياته في التخفي من بني مروان، وخوفه وقلقه من أن يقع في أيديهم، ثم تمسكه الثابت بمبدأ الخروج، وجميع هذه الصور يربط بينها شعور واحد، ولذا لا

---

(1) الأغاني ساسي ج16 ص146 وما بعدها.

(2) الكامل في الأدب للمبرد ص530 وما بعدها.

(3) ينظر الاغاني ج16 ص148.

نحس فيها تفككاً في الصورة أو انفصاماً لعراها، بل هي تسير على نسق يقوم على الترابط، ولكن في أسلوب عفوي وسهل، يقول عمران:

يا روح كم من أخي مثوى نزلت به   قد ظن ظنك من لخم وغسان[1]

حتى اذا خفته فارقت منزله   من بعد ما قيل عمران بن حطان

قد كنت ضيفك حولاً ما تروعني   فيه الطوارق من إنس ومن جان[2]

حتى أردت بي العظمى فأوحشتني   ما أوحش الناس من خوف ابن مروان[3]

فاعذر أخاك ابن زنباعٍ فإن له   في النائبات هنات ذات ألوان[4]

يوماً يمانٍ إذا لاقيت ذا يمن   وان لقيتُ معدياً فعدناني

لو كنت مستغفراً يوماً لطاغيةً   كنت المقدم في سري واعلاني

لكنت أبت لي آيات مطهرة   عند التلاوة في طه وعمران[5]

(1) اخي مثوى صاحب اقامة. ولخم وغسان قبيلتان من اصل يمني.

(2) الحول العام. والطوارق الحوادث المفاجئة يريد لا تخيفني الحوادث المفاجئة أي انكشاف أمره.

(3) العظمى المصيبة الكبيرة يريد القتل وابن مروان هو عبد الملك.

(4) الهنات هنا الخصال. وذات الوان يريد ان يتقلب فيها من حال الى حال.

(5) في أدب الإسلام ص619-621.

النقائض

استقرت القبائل وعادت العصبيات واجتمع الشعراء في المربد والكناسة فرأوا في الهجاء تسلية ثم تحول فن خاص هو: النقائض على يد جرير والفرزدق والأخطل وأصبح الهجاء حرفة وشعرا ينشد يوميا فتعقدت معانيه وتوسعت مدلولاتها وتعمقت مفاهيمها فكانت القصائد تجاب بعدة طرق هي : القلب(وهو ان يقول الشاعر هاجيا فيرد الثاني قالبا عليه معانيه ذاتها مدعيا أنها صفات الأول) ، والتوجيه (وهو ان تحدث حادثة فيتناولها الشاعران وكل واحد يفسرها تفسيرا يؤيد موقفه في الفخر والهجاء)، والتكذيب (هو ان يدعي كل شاعر لنفسه او لقومه مأثرة بعينها ويدفع عنها زميله)والوعيد والشماتة، وهكذا نقف أسباب شخصيته إلى جانب العصبيات منها انتصار شاعر لزميله له يتهاجى مع زميل آخر، ومن الباحثين من يرجع ذلك إلى نمو العقل العربي ومرانه الواسع على الجدل والحوار والمناظرة في السياسة واللغة، قال جرير :

آل المهلب فرطوا في دينهم

وطغوا كما فعلت ثمود فبادوا

ومن الطريف هجاء الفرزدق لإبليس:

أطعتك يا إبليس سبعين حجة

فلما انتهى شيبي وتم تمامي

فررت إلى ربي وأيقنت إنني

ملاق لأيام المنون حمامي

قال : جرير يهجو الفرزدق من قصيدة:

لقــد ولــدت أم الفــرزدق فــاجراً
فجــاءت بــوزّارٍ قصــير القــوادم[1]

يمكـــن رجليــه إذا جـــن ليلـــهُ
ليرقـــى إلى جاراتـــه بالســـلالم

هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا
مــداخل رجــس بالخبيثــات عــالمِ

لقد كان إخراج الفرزدق عنكم
طهــورا لمــا بــين المصــلى وواقــم[2]

تــدليت تزنــى مــن ثمــانين قامــةً
وقصرت عن باع العلى والمكارم[3]

وقال في هجاء الأخطل وبني تغلب:

قــبح الإلــه وجــوه تغلــب كلمــا
شــبح الحجــيج وكــبروا إهــلالا[4]

(1) الوزار : صيغة مبالغة كثير الأوزار، وهي الآثام ، ويروى (بوزواز) وهو طائر والرجل الطياش الخفيف، والقصير، والوزوزة : الخفة، وسرعة الوثب ، ومقاربة الخطو مع تحريك الجسد ، وهذا الوصف يناسب وصفه بـ(قصير القوادم)، والقوادم: ريشات في مقدمة الجناح ، والطائر اذا كان قصير القوادم لم يكن يويا على الطيران العالين وكان طيرانه وثباً.

(2) واقم: موضع في ظاهر المدينة، وهو قصر أو حصن هناك.

(3) ثمانين قامة : ثمانين ظهرا ، وهم اباؤه الذين تناسل منهم.

(4) الحجيج: جمع الحاج، وشبحوا : رفعوا أيديهم بالدعاء.

والــتغلبي إذا تنحــنح للقـــرى

حــك اســته وتمثــل الأمثـــالا

ولـو أن تغلـب جمعـت أنسـابها

يـوم التفاضـل لم تـزن مثقـالا

لا تطلـــبن خؤولـــة في تغلـــب

فـالزنج أكـرم مـنهم أخـوالا

يقول الفرزدق في نقيضته :

فهل ضربة الرومي جاعلة لكم أبا عن كليبٍ أو أبا مثل دارم

ونرى جريراً يرد عليه بمثل قوله:

بسيف أبي رغوان سيف مجاشعٍ

ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ضربت به عند الإمام فأرعشت

يداك وقالوا محدث غير صارم

ضربت به عرقوب نابٍ بصوأرٍ

ولا تضربون البيض تحت الغمائم

عنيفٌ بهز السيف قين مجاشعٍ

رفيقٌ بأخرات الفؤوس الكرازم

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صؤر، وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فجلل له جرير هذه المعركة بعار الجبن، فأبوه

وهو إنما يضربان، بمثل هذا السيف الذي نبا في يده، عراقيل الإبل لا صدور الفرسان، ويقول له إنك قينٌ لا تحسن الضرب بالسيف بل تفزع وتهلع حين تمسك به، إنما تحسن الإمساك بالفؤوس فهي صناعتك.

وواضح ان جريراً لم يقف بنبو السيف في يد الفرزدق ووصفه بأنه قين ابن قين عند حد الثلب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق، واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدل أبلغ الدلالة على ما أصاب العقل العربي عند جرير من قدرة على التوليد في المعاني، كما نرى في مثل قوله:

إذا آباؤنـــا وأبـــوك عـــدوا أبـــان المقرفـــات مـــن العـــراب
فأورثـــك العـــلاة وأورثونـــا ريـــاط الخيـــل أفنيـــة القبـــاب

وقوله:

هو القينُ وابن القين لاقين مثله

لفطح المساحي أو لجدل الأداهم

وقوله:

ورقـــع لجـــدك أكيـــاره وأصـــلح متاعـــك لا تفســـد
وأدن العـــلاة وأدن القـــدو ووســـع لكـــيرك في المقعـــد

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شيء هذا العنصر من عناصر الإضحاك، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصراني ضده، فأخذ يضحك عليه سامعيه في المربد بمثل قوله:

وإنك لو تعطي الفرزدق درهما

على دين نصرانية لتنصرا

وقوله:

يحبك يوم عيدهم النصارى ويوم السبت شيمتك اليهود

ولعل في هذا ما يدل أكبر الدلالة على أن النقائص عند الشاعرين الكبيرين، جرير والفرزدق، إنما كان يقصد بها قبل كل شيء إلى تسلية الجماعة العاطلة التي تكونت في المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة، وقد بدأت بأسباب قبلية، ولكنها تطورت إلى مناظرة يراد بها ملء أوقات العاطلين، وهي مناظرة كانت تقاطع بالتهليل والتصفيق ومن ثمَّ لم تأخذ شكلاً جاداً من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب، ولو أنها أخذت شكلاً من هذه الأشكال لشهرت معها السيوف، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق في قذف نساء العشائر والأمهات والأخوات، إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم، بل أصبحت فناً يقصد به إلى إمتاع الناس في البصرة وقطع أوقات فراغهم، ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين، ليتناشدوا ابتغاء اللهو والتسلية، وكل الأخبار تؤكد أن جريراً والفرزدق كانا متصافيين متوادين لا متخاصمين متباغضين فهما يجتمعان عند الخلفاء والولاة، وهما يرحلان إلى دمشق سوياً، وإذا نزلت بأحدهما شدة أو حزبه أمر وقف الآخر معه يمد له يد العون، فإذا طلب جرير لحرب الأزارقة تشفع له الفرزدق، وإذا هجا الفرزدق خالداً القسري وحسبه تشفع له جرير عنده، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه، لعله يلين له قلبه ويطلقه، ونراه حين يلبي القدر قلبه يرثيه رثاء حاراً بمثل قوله:

ولا حملت بعد الفرزدق حرة ولا ذات حملٍ من نفاسٍ تعلت

هو الوافد المحبو والراتق الثأى

إذا النعل يوما بالعشيرة زلت

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حاد إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر في عصبيات القبائل والعشائر، على نحو ما كان يتناظر في عصرنا أصحاب الصحافة الحزبية في آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين وتظل لهم في أثناء ذلك صداقتهم، وواضح مما قدمنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة إلى ما يسد فراغهم ويشغل أوقاتهم، ولم يلبث الشاعران أن حققا لهم كل ما كانوا يبغون من ذلك، إذ تحولا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة التي استضاءا فيها بقدرة العقل العربي الحديثة على الجدال والتوليد في المعاني، وارجع إلى أي فكرة عندهما كفكرة ان الفرزدق قين أو فكرة ذل بني كليب فسترى كلا منهما يعرض الفكرة التي يقف عندها في صور كثيرة، إذ ما يزال يولد فيها وما يزال يستنبط ويفرع ويشعب، وكأنما يريد ان لا يبقى فيها بقية، وانظر في أي نقيضة يرد بها أحداهما على خصمه فتراه يقف بإزاء كل بيت قاله صاحبه ويرد عليه صنع المتناظرين من أهل اللدد والخصومة في المسائل العقيدية، فهو يحاول جاهداً ان يبطل كل فكرة اعتمد عليه صاحبه في هجائه وان ينقضها نقضاً ومن ثم كنا نرى ان نقائض جرير والفرزدق فن جديد، وهي ككل فن يتصف بهذه الصفة، سبقتها مقدمات في العصور السالفة، ولكنها استوت عند الشاعرين في صورة جديدة، وهي صورة معقدة، إذا اعتمدت على دراسة التاريخ القديد والحديث للقبائل ودارسة مفاخرها ومثالها، كما اعتمدت على استيحاء روح

الإسلام وما شاع في العصر من قدرة على الجدال والحوار، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة في الهجاء القديم، وهي ظاهرة التندير على المهجو وقبيلته، حتى تضحك المستمعين في المربد، وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصياح والصفير والتصفيق، ومن ثم لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك في خصمه إلا أثاره، كأن يقول الفرزدق في جرير:

يُهدي الوعيد ولا يحوط حريمه   كالكلب ينبح من وراء الدار

أو يقول في كليب عشيرته:

يستيقظون إلى نهاق حمارهم   وتنام أعينهم عن الأوتار

أو يقول:

أتعدل أحسابا لئاما أدقةً   بأحسابنا أنّي إلى الله راجع

وكان جرير يلقاه بمقل قوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً

أبشر بطول سلامة يا مربع

وقوله:

خذوا كحلا ومجمرة وعطرا

فلستم يا فرزدق بالرجال

وهو يتفوق على الفرزدق في هذا الجانب تفوقاً واضحاً، ثم كان هجاؤه أكثر مرارة وأشد نكاية.

وساقت الظروف الأخطل شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميها المناضل عنها، وكان الأخطل يهاجي قيساً في الحروب التي نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعة مرج راهط سنة 65هـ، وكان شعراؤها يردون عليه، فيفحمهم بأهاجيه المقذعة.

وشاءت المقادير أن يلم بالعراق في ولاية بشر بن مروان فاصطدم هناك بجرير، ويقول الرواة انه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه، وطبيعي ان يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يجلب عليه، فبم يكن منشأ التفضيل الحكم الفني من حيث هو، إنما كان منشؤه الخصومة العنيفة بين تغلب وقيس، وسرعان ما استطار الهجاء بين الشاعرين، وإذا هما يخلفان طائفة كبيرة من لنقائض، جميعها أبو تمام( )، وقد ظلا ينظمانها منذ سنة 73 إلى ان توفي الأخطل حوالي سنة 92، وهو يعد مع جرير والفرزدق فحول الشعر في هذا العصر، يقول الجاحظ: " والذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه، ومدحوا فرفعوا من قدر من مدحوا، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأفحموهم، وسكت عنهم بعض من هجاهم مخافة التعرض لهم، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبة بأنفسهم عن الرد عليهم وهم إسلاميون، جرير والفرزدق والأخطل( ).

وجميع الظواهر التي لاحظناها في نقائض جرير والفرزدق نجدها مجسمة في نقائض جرير والأخطل، فهما جميعاً يعنيان بتاريخ القبائل في الجاهلية والإسلام، وهما يخلطان العصبيات بالسياسة، وقد ساقت الظروف

تغلب لتقف في صفوف بني أمية ضد قيس، كما ساقت الأخطل التغلبي ليكون شاعر بني أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق في الجزيرة والعراق، وربما كانت قصيدة (خف القطين) للأخطل أروع نقائضه مع جرير، ونراه يستهلها بالنسيب، ووصف حزنه لفراق أحبته، وهو يتبعهم طرفه مولها، حتى ليشبه نفسه بالسكران المنتشي، ويصف الخمر وصفاً قصيراً، وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدق يلمان به، لتحريم الإسلام للخمر، وكان الأخطل نصرانيا فانفرد بهذا الموضوع في شعره.

على أنه لم يطنب فيه هنا، فقد تركه إلى وصف ظعن الحبيبة مستلهماً زهيراً في هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء، وإقبالهم على الشباب وانصرافهن عن الشيوخ، وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك فمدحه من حيث هو خليفة، منوهاً بجوده ومشبهاً له في هذا الجود بالفرات، وهي صورة يتأثر فيها تأثيراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر في معلقته، ويمضي فيفصل الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته في قيادة الجيوش والظفر بخصومه، ويمدح أسرته الأموية منوها بشرفها العريق وأنفتها وحمايتها عن الحقوق وبأسها وقوة مراسها وحلمها وصلابتها، ويشيد بوقوفه في صفوف بني أمية ونضاله أعداءهم، كما يشيد بنصر قبلته لهم، ويحمل على زفر بن الحارث زعيم قيس، وكان قد دخل في طاعة عبد الملك، وكأنه يبغي أن يحفظه عليه وعلى قبيلته يقول:

بني أمية إني ناصحٌ لكم

فلا يبيتن فيكم آمنا زفر

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس في حروبهما بالجزيرة، ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس في طاعة بني أمية ! وقد مر أنها نكلت بتغلب بعد موقعة الحشاك التي قتل فيها فارسها عمير بن الحباب وأن زفر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيوشه لحرب مصعب، لا قهراً من تغلب ولكن بُعد نظر، ومضى الأخطل يهجو قيسا إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل إلى جرير وعشيرته كليب، فأقذع في هجائها إقذاعاً شديد بمثل قوله:

أما كليب بن يربوع فليس لهم

عند التفارط إيراد ولا صدر

مخلفون ويقضى الناس أمرهم

وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا

ملطمون بأعقار الحياض فما

ينفك من دارمي فيهم أثر

قومٌ أنابت إليهم كل مخزيةٍ

وكل فاحشة سبت بها مضر

على العيارات هداجون قد بلغت

نجران أو حدثت سوءاتهم هجر

جرير

أبو حزرة جرير بن عطية بن حذيفة الملقب بالخطفي، ابن كليب اليربوعي التميمي، ولد باليمامة نحو سنة 653م/33هـ، من أبٍ وضيع خامل بخيل، نشأ في عشيرته نشأة البدوي الفقير الخشن العيش، يرعى لأبيه غنيمات من الضأن والمعزى، وكان فصيح اللسان من صغره، مطبوعاً على الشعر، فقاله صبياً. وأظهر حدة وشدة على خصومه من قبيلته ومن القبائل التي كانت تخاصم قبيلته حتى عظم أمره.

ولما شبت نيران التهاجي بينه وبين الفرزدق، ترك اليمامة قاصداً البصرة بالعراق لعلمه ان اليمامة لا يمكنها ان توصله إلى ما كان يحب من شهرة ومال، ومن العراق راح يضرب في الأرض إلى الحجاز فالعراق فالبحرين فاليمامة فدمشق فالرصافة، منتجعاً ذوي السلطان وافداً على الأمراء وقد يكون أولهم يزيد بن معاوية ثم الحجاج ثم بشر بن مروان، ولقي لدى الحجاج حظوة كبرى، وطارت مدائحه فيه، وقد تزوج الشاعر بعدة نساء يذكر منهن ثلاثاً في شعره وكان له عدة أولاد أكبرهم (حزرة).

اتصل الشاعر بعبد الملك بن مروان وذلك انه رأى الشعراء يتهالكون على أبواب الخليفة، وعلم من أمر الأخطل ما هاج فيه الرغبة بمديح عبد الملك، علّه ينال منه ما ينال غيره من المال الوفير، فأقدم يساعده الحجاج، إلا انه لم يستطع الدخول على عبد الملك إلا بعد جهد، وذلك لان الخليفة كان يرى في كل شاعر مضري حليفاً للزبيرية، ولما مثل بين يدي عبد الملك انشده قصيدته التي يقول فيها:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح[1]

---

(1) المطايا مطية وهي ما يركب من الدواب.الراح جمع راحة باطن الكف.اندى العالمين:أي أكثر الناس عطاء وجوداً.

وعرض بابن الزبير فأجازه عبد الملك، وفي مجلس هذا الخليفة اجتمع بالأخطل وقد انتصر عليه الأخطل بقصيدته التي مطلعها (خف القطين...).

واتصل بالوليد بن عبد الملك ولقي لديه الحظوة التي كان يلقاها عند أبيه، وفي ذلك العهد احتدم التهاجي بين جرير وعدي بن الرقاع شاعر الوليد الخاص، وسبب ذلك تقدم عدي بن الرقاع عند الوليد ثم ما كان من مضرية جرير وقحطانية عدي، وفي آخر عهد الوليد مات الحجاج ففقد جرير بموته ركناً كان يعتمد عليه في العراق.

وعندما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة مدحه جرير فلم يصله، وذلك ان عبد العزيز كان رجلاً – على حد قول جرير- يقرب الفقراء ويباعد الشعراء، ولما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك مدحه الشاعر كما قصد هشاماً أخاه إلى الرصافة ومدحه.

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وفاة جرير، على انه في الأغلب توفي سنة 733م/114هـ، وذلك بعد وفاة الفرزدق بنحو أربعين يوماً، وبعد وفاة الأخطل بنحو ثلاث وعشرين سنة.

لجرير ديوان طبعه محمد إسماعيل الصاوي سنة 1935 بالقاهرة، اعتمد فيه على نسخة الإمام محمد بن حبيب الذي رواها عن محمد بن زياد الاعرابي عن عمارة بن بلال بن جرير، كما اعتمد على كتاب النقائض وعلى ما ورد في كتب الأدب، أما أغراض شعر جرير فمرجعها إلى المدح والرثاء والفخر والهجاء والغزل[1].

---

(1) تاريخ الأدب العربي – حنا الفاخوري (بيروت 1960) ص 294-295.

الفرزدق

ولد الفرزدق حوالي سنة 19هـ، في خلافة عمر وكانت عشيرته من بني مجاشع بن دارم ممن نزل البصرة من بطون تميم أول اختطاطها عند الفتح، وكانت لهم خطط ودور بالبصرة ينزلونها في بعض فصول السنة ويتبدون في بعضها الآخر.

وكان أبوه غالب بن صعصعة ينزل السيدان من بادية البصرة بالقرب من كاظمة على ماء كانت تنزل حوله قبائل شتى من قيس وتميم، وكانت البصرة في أول أمرها تعتبر معسكراً للمقاتلة من العرب لا يخالطهم فيها إلا مواليهم، فكانت بذلك بيئة عربية، فنشأ الفرزدق ما بين السيدان والبصرة فصيح اللهجة ملما بدقائق اللغة حافظاً غريبها عالماً بأخبار العرب وأيامها وأيام تميم وخاصة أيام بني دارم في الجاهلية والإسلام، وحبب إليه لشعر منذ طفولته فنظمه فأعجل به أبوه، وكان من شيعة أمير المؤمنين علي، فأتاه عقب فراغه من واقعة الجمل، ومعه ابنه الفرزدق فسأله عنه فقال: " هذا يوشك ان يكون شاعراً مجيداً، فقال: " أقرئه القرآن فهو خير له"، فما زالت كلمة أمير المؤمنين تعمل في نفس الفرزدق دهراً طويلاً حتى عمل بها بعد أن جاوز الثلاثين.

وكان أبوه غالب كريماً متلافا سيداً شجاعاً، وفد على النبيﷺ، وعمر حتى مات في إمارة زياد وخلافة معاوية ودفن بكاظمة، وكذلك كان جد الفرزدق صعصعة من أكرم الناس في الجاهلية وأشرفهم، وكان شاعراً مقلا يلقب بمحيي المؤودات، لأنه إذا علم برجل بهم بوأد ابنته للفقر اشتراها منه بناقتين لقوحين وجمل، فجاء الإسلام وقد فدى ستين وثلاثمائة موؤدة لم

يشاركه في هذه المكرمة احد، حتى انزل الله تحريم الوأد في القرآن، ووفد على النبي ﷺ وأسلم وعلمه آيات من القرآن، وسأله : هل له في فداء المؤودات من أجر؟ فقال له: " هذا من البر ولك أجره إذ من الله عليك بالإسلام".

فبذلك يفتخر الفرزدق على جرير، لأنه آباءه كانوا أذلاء، وفطر الفرزدق على الهجاء من صغرهن قال عن نفسه: " كنت أهاجي شعراء قومي في خلافة عثمان بن عفان، فكان قومي يخشون معرة لساني منذ يومئذ.

وهجا جرير البعيث وقومه مجاشعا وهم رهط الفرزدق أيضاً فاضطر الفرزدق الى الرد عليه وقال:

لعمري أئن قيدت نفسي لطالما ... سعيت وأوضعت المطية للجهل

ثلاثين عاماً ما أرى من عماية ... إذا برقت إلا شددت لها رحلي

فإن يك قيدي كان نذراً نذرته ... فما بي عن أحساب قومي من شغل

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما ... يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

ثم هجا جريراً وهجاه جرير، فما يقول قصيدة حتى ينقضها عليه جرير، ولا يقول جرير قصيدة حتى ينقضها الفرزدق، وتورط معهما في تهاجيهما، أكثر من ثمانين شاعرا منهم الأخطل، فظهر جرير عليهم كلهم وأسقطهم وثبت له الفرزدق والأخطل، ومات الأخطل وبقي الآخران يتسابان سائر حياتهما، وان جرير في العشر السنوات الأولى من تهاجيهم يقيم منعزلا بالبادية باليمامة ويرسل القصائد إلى من بالبصرة من بني يربوع، والفرزدق مقيم بالبصرة حيث الرواة وجمهرة أشعار العرب، فأرسلت إليه وأحضرته إليهما فكانا يتهاجان، فإما ان يتلاقا بالمربد وقد يؤدي ذلك إلى اقتتال بني يربوع

وبني المجاشع، وإما ان تجتمع يربوع ورواة جرير عليه بالمربد، وتجتمع مجاشع ورواة الفرزدق عليه بمقبرة بني حصن، والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما بالبصرة.

وفي خلال تهاجيهما يهجو كل منهما بعض أنصار الآخر أو من يتعرض له، فهجا الفرزدق في أول تهاجيهما بني فقيم وبني نهشل، فاستعدوا عليه زياداً، وهو والي العراق من قبل معاوية، وكان رجل جد، فطلبه زياد فهرب إلى المدينة المنورة وعليها سعيد بن العاص، وهو وال على المدينة لمعاوية، ومدحه فأمنه سعيد، فأقام في المدينة يختلف إلى قيانها ويستمع إلى غنائهن ولم تطل الأيام حتى عزل سعيد وولى مروان بن الحكم، فأخذه بما كان يقول وينشد من أخباث قوله وأرسل يطلبه، فلما جاءه قال: " أتدري ما مثلك؟ حديث تحدث به العرب أن ضبعاً مرت بحي قوم، وقد رحلوا فوجدت مرآة، فنظرت وجهها فيها، فلما نظرت قبح وجهها ألقتها وقالت: من شر ما أطرحك أهلك ولكن من شر ما اطرحك أميرك! – يريد زياداً- فلا تقيمن بالمدينة بعد ثلاثة أيام"، فخرج يريد اليمن، فلما كان في أثناء الطريق علم بموت زياد فخر ساجداً ورجع.

ولما مات معاوية وخالف أهل المدينة على يزيد، وكاتب أهل الكوفة الحسين بالخلافة، واستنهضوه إليهم سار إليهم في أهل بيته، فلقيه الفرزدق في الطريق قادماً من العراق، فسأله الحسين عن أهل الكوفة: قال له: " يا ابن رسول الله قلبوهم معك وسيوفهم مع أعدائك! ومضى كل لطيته.

ولما دعا عبدالله بن الزبير بمكة لنفسه بايعه أهل العراق، وبعث إليهم أخاه مصعباً، وكان تميم بالبصرة فيمن دخل في دعوته، ومنهم رهط جرير

والفرزدق، فولى ابن الزبير على البصرة الحارق بن أبي ربيعة المخزومي القرشي الملقب بالقباع، وهو أخو عمر بن أبي ربيعة، وكان متنسكاً يروي عنه الفقه والحديث، فأغضباه تساب جرير والفرزدق، وكره منهما إذاعة الفاحشة بين المؤمنين، فهدم الدارين اللتين كانا ينزلانهما بالبصرة لينتهيا، فذلك حيث يقول الفرزدق وكان قد هرب منه:

أحارث داري مرتين هدمتها   وأنت ابن أخت لا تخاف غوائله
وقبلك ما أعييت كاسر عينه   زياداً فلم تقدر على حبائله
فآليت لا آتيه تسعين حجة   ولو كسرت عين القباع وكاهله

وفي ذلك يقول جرير:

أحارث خذ ما شئت منا ومنهم   ودعنا نقس مجداً تعد فواضله
فما في كتاب الله تهديم دارنا   بتهديم ماخور خبيث مداخله

ثم لما انتكث قتل ابن الزبير وماجت العراق بالفتن اختفى خبرهما حتى قتل عبد الملك بن مروان مصعباً، وولى أخاه بشراً على العراق، وكان أديبا يحب الشعراء ويعجبه أن يغرى بينهم فجعل من أخص مادحيه الفرزدق وجريراً، فلما مات وآلت ولاية العراق إلى الحجاج كانا من مادحيه، ثم اتصلا بعبد الملك بن مروان وزاحمت الأخطل في مدحه، إلا ان الأخطل صانع الفرزدق وناصره على جرير كما علمت، وبقي الفرزدق وجرير يتكسبان بالشعر بمدح عبد الملك وإخوته والحجاج وولاته زمن عبد الملك والوليد وسليمان وهشام، إلا ان الفرزدق لسوء سيرته وجهامة طبعه كان الولاة يحبسونه ويضطهدونه، ومن هؤلاء عمر بن عبد العزيز، نفاه مرة عن المدينة، وحسبه مالك بن المنذر والي

البصرة من قبل خالد بن عبدالله القسري، ولما كبر الفرزدق خمدت فيه ثورة الشر وتنسك وتاب وتوفي بالبصرة عام 110هـ، ودفن في مقبرة بني تميم بعد ان عمر نحواً من مائة سنة.

نشأ الفرزدق مع أبيه وأهل بيته يقيم بالبصرة بعض السنة وببايديتها بسيدان وكاظمة من ناحية سيف البحر بقية السنة، فجاءت أخلاقه في جملتها خليطاً من أخلاف أهل البدو وأخلاق أهل الحضر،وهو إلى جفاء أهل البدو وغلظ طباعهم أقرب.

ولم يكن أهل بيته الأدنون وضعاء الأنفس ساقطي الهمة كأهل جرير وأبيه عطية، بل كانوا كراما إلى حد الإسراف، وبخاصة أبوه غالب وعمر الفرزدق طويلاً ورويت له أخبار كثيرة نستخلص منها عامة **أخلاقه:**

كان الفرزدق باراً بأبيه متفانيا في محبته موقراً له في حياته وبعد مماته، حتى لقد كان يجير من يعوذ بقبر أبيه غالب بكاظمة، وكان في استطاعته أن يعيش في مال أبيه رخي البال هنيء العيش لم يستمع إلى تحريش السفهاء بينه وبين الناس، على أن انطباعه على الشعر منذ طفولته ولد فيه حب الانتصار والغلب والمباهاة، وهي أخص صفات البدوي، ولم تكن المغالبة في الشعر إلا بالهجاء والسباب والاقذاع في القول، فخرج الفرزدق شريراً سليط اللسان عريضا للشر يبادئ من لم يبادئه به، وكان ذلك سبباً في تأديب الولاة بالحبس والنفي والتشريد مراراً فلم ينتفع بتأديبهم، فخافه الأشراف والعلماء فداروه بالمال والمقال.

وكان مع ذلك جباناً فروقة كثير الهرب من الولاة ممن يرى منه الجد في الانتقام منه، وكان فاجراً لا يتورع عن ريبة، وربما تاب عن قذف المحصنات

واقتراف المحظور ثم يعود، وحج مراراً وحده أو مع بعض الأمراء، وأقام بمكة أو بالمدينة فلم يؤثر ذلك في تهذيبه.

وكان الفرزدق مع مدحه خلفاء بني أمية يتشيع لأهل رسول الله ﷺ، فيسره أحياناً ويظهر أحياناً على فلتات لسانه، على خلاف ما كان عليه أهل البصرة من النصب لعلي وآله لأنهم كانوا عثمانية منذ واقعة الجمل، ولعله ورث التشيع من أبيه غالب منذ قدومه على علي وتعريفه أن ابنه من شعراء مضر فأمره ان يحفظه القرآن، فما زالت كلمة أمير المؤمنين تختلج في صدره حتى قيد نفسه لجمع القرآن بعد أن حج وتاب، وكان يقدم على السيدة سكينة بنت الحسين متيمناً مستمنحاً.

وكان الفرزدق فخرا إلى حد الغلو بنفسه وآبائه كثير التحدث عنهم في شعره وما من قصيدة له إلا غلب عليها بآبائه لا يبالي أكانت في مدح خليفة أم هي في هجاء أم رثاء.

وكان نزر الكلام في المدح قليلة الفخر فجعل جرير يظهر عليه أحياناً من هذه الناحية، والفرزدق كأكثر الشعراء قليل الوفاء – مدح الحجاج في حياته وهجاه في مماته.

وقال الفرزدق الشعر منذ طفولته فأعجب به أبوه غالب إذ لم يكن هو شاعراً، ولم يقل الشعر أحد من أهل بيته من هذه الطبقة وإنما كان صعصعة جده يقول المقطعات الهينة المقدار، يقولها في شأن نفسه، وقد قيل للفرزدق: " مالك والشعر وما كان أبوك غالب شاعراً ولا كان صعصعة شاعراً، فمن أين لك هذا ؟ قال خالي العلاء بن قرظة الذي يقول:

إذا مـا الـدهر جـر علـى أنـاس   كـلا كلـه أنـاخ بآخرينـا

فقـل للشـامتين بنـا أفيقـوا   سـيلقى الشـامتون كمـا لقينـا

وظهر لشعره من أول أمره وروعة وقوة أسر، وقد انتحى به ناحية الهجاء لما فطر عليه من طبيعة الشر وحب اللجاجة ولدادة الخصام، فهاجى شعراء قومه، فلقوا منه شراً مستطيراً وتخوفه الأشراف وصانعوه، وأطعمه ذلك في اتخاذ الشعر حرفة يتكسب بها وقد كان له في مال أبيه وقومه غنية أي غنية!.

وكان الفرزدق قوي الذاكرة فحفظ من شعر الجاهلية والإسلام الكثير العزيز، وجمع من اللغة وتاريخ العرب في جاهليتها عامة وأيام قومه خاصة، ما لم يبزه فيه شاعر من أهل زمانه حتى ولا جرير والأخطل.

وكان طويل النفس في الهجاء والمناقضات والفخر، حتى لتزيد أبيات قصائده فيها على المائة، قصير النفس في المدح فلا يكاد مدحه يبلغ ثلث ما في القصيدة من النسيب والفخر.

ومع فحولته في الشعر وحسن تأتيه ومواتاته له فإن كان يحسد من دونه من الشعراء على البيت أو الأبيات القليلة يقع له فيها المعنى البديع، وخاصة إذا كان الشعر في فخر لا يراه الفرزدق يليق بهذا الشاعر فيخصبه أبياته ويقول له: " أنا أولى بها منك" !، ويضمها إلى شعره فلا يستطيع الشاعر ان ينكرها عليه لعجزه عن مجاراته.

وشعر الفرزدق السياسي ويشمل مدحه وهجاءه ونقائضه، ذو شهرة كبيرة، ومكانة عالية، ونماذجه كثيرة.

وأسلوب الفرزدق قوي شديد الأسر، ولذلك قيل: الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر لسهولة شعر جرير وعذوبة أسلوبه.

وقد أكثر النقاد في الموازنة بين جرير والفرزدق، يفضل بعضهم جريراً، ويفضل آخرون الفرزدق، ويقف الباقون في أمر تفضيل أحدهما على الآخر، وجملة الأمر ان جريرا والفرزدق احتلا الصدارة في زمانهما، وكانت منزلتهما عالية عند الملوك والولاة والشعب، وان جريراً تفوق في مدائحه والفرزدق تفوق في فخره.

وللفرزدق قصة شعرية فريدة في بابها وتعد زمن صور القصة الشعرية في الأدب العربي وتمثل سبق الشعراء العرب القدامى إلى هذا الفن، وهي في قص قصة ذئب مع الشاعر قال الفرزدق:

وأطلس عسال، وما كان صاحبا دعوت لنا ري موهنا فأ تانى[1]
فلما دنا قتلت:أدن، دونك إنني وإياك في زادي لمشتركان
فبت أقد الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ودخان
وقلت له لما تكشر ضاحكاً وقائم سيفى من يدي بمكان
تعش فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من ياذئب يصطحبان
وأنت امرؤ ياذئب والغدر كنتما أخبين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى رماك بسهم أو شباة سنان[2]
وكل رفيقي كل رحل، وان هما تعاطى القنا قوماهما، أخوان[3]

---

(1) الأطلس : الذئب في لونه غبرة تميل الى السواد. عسال: يضطرب في مشيته. الموهن نحو منصف الليل، وقال الاصمعي : هو حين يدبر الليل أي آخر الليل.

(2) شباة السنان:طرفه أو حده، الحياة الأدبية – عصر بني آمية ص177-184.

(3) القنا : الرماح.

للفرزدق من قصيدة يفخر بها ويهجو جريرا وهي إحدى النقائض:

إن الـذي سمـك السـمـاء بنـى لنـا
بيتــاً دعائمــه أعــز وأطــول[1]

بيتـــاً (زُرارة) محتـــبٍ بفنائـــه
و(مجاشع) وأبو الفوارس (نهشل)[2]

يلجون بين (مجاشع) وإذا احتبوا
بــرزوا كــأنهم الجبــال المثــل[3]

لا يحـتبي بفنـاء بيتـك مثلـهم
أبــداً إذا عــد الفعــال الأفضــل[4]

ضربت عليك العنكبوت بنسجها
وقضى عليك به الكتاب المنزل[5]

---

(1) سمك السماء: رفعها . الدعائم : جمع دعامة ، عمود البيت، وأعز وأطول: عزيزة وطويلة ، وليس المراد هنا التفضيل.

(2) زرارة ومجاشع ونهشل: أولاد دارم أحد أجداد الفرزدق الذين يفتخر بهم على جرير وغيره. احتبى الرجل: اذا جمع ظهره وساقيه بحمائل سيفه أو غيرها ، وقد يحتبى المرء بيديه ، ومنها جلسة الاحتباء . الفناء ككتاب : ما اتسع من أمام البيت وقيل : ما امتد من جوانبه.

(3) يلجون: يدخلون . الجبال المثل: الراسيات، جمع ماثل. يصفهم بالحلم والرزانة ، فيشبههم بالجبال الراسخة.

(4) الفعال: بفتح الفاء : الفعل الحسن. أي ليس من اهلك وذويك سراة مثل هؤلاء الذين عددتهم ، ولا تستطيع ان تفاخرني بأمثالهم اذا ذكرت الأفعال المجيدة.

(5) بيت العنكبوت: يضرب به المثل في الضعف والوهن، قال تعالى **(وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت)**، أي ان بيتك ياجرير في ضعفه وذله وهوان شأنه كبيت العنكبوت.

أين الـذين بهـم تسـامى (دارمـاً)
أم مـن إلى سـلفي (طُهيـة) تجعـل؟ [1]

يمشـون في حلـق الحديـد كمـا
جرب الجمال، بها الكحيل المشعل[2]

المـانعون إذا النسـاء ترادفـت
حـذر السـباء ركابهـا لا ترحـل[3]

والأكثـرون إذا يعـد حصـاهم
والأكرمـون إذا يعـد الأول[4]

أحلامنـا تـزن الجبـال رزانـة
وتخالنـا جنـاً إذا مـا نجهـل[5]

---

(1) تسامى : تفاخر . طهية : امرأة من قوم الفرزدق يفخر بأولادها على جرير . وسلفاها : مثنى سلف، من تقدم من الآباء والقرابة من جهتي الاب والام .تجعل : هنا بمن تقرن بهم وتتباهى.

(2) الحلق: الدرع. جمع حلقة، جرب الجمال: من باب تقديم الصفة على الموصوف أي الجمال الجرب، وهي المصابة بداء الجرب، الكحيل: النفط، او القطران يطلي به الابل، يشبه قومه وهم مدججون بالحديد وعليهم اثر السواد ، بالجمال المسودة من القطران حتى تطلى به.

(3) ترادفت : ركب بعضهن خلف بعض على ظهور الجمال ، ومنه الرديف، وهو الذي تحمله خلفك على ظهر الدالة ، والجمع ردّاف على غير قياس . السباء: الأسر ، يقال سبى العدو سبيا وسباء، أسره كاستباه، فهو سبي وهي سبي أيضاً، والجمع سبايا ، رحلت البعير: شددت عليه رحله، والمعنى انهم يمنعون نساءهم ويحامونها في وقت الغارة وفزع النساء حين تركب الجمال بغير ارحل، وذلك من الهول.

(4) حصاهم: يريد به عددهم الكثير، وقد شبهه بالحصى، الأول من الآباء والأجداد.

(5) الأحلام : جمع حلم العقل والأناة . الرزانة : الوقار. تزن الجبال : تعادلها وزنا، يريد زيادة أحلامهم وثقلها، واذا جهلوا آي خرجوا عن حلمهم، آتوا بأفعال خارقة كآنها من افعال الجن.

يا (ابن المراغة)، أين خالك إنني

خالي (حُبيش) ذو الفعال الأفضل[1]

خالي الذي غصب الملوك نفوسهم

وإليه كان حباء (جفنة) يُنقل[2]

وشغلت عن حسب الكرام وما

إن اللئيم عن المكارم يُشغل[3]

لقد قيل : " ديوان الفرزدق في حقيقته يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه وتمجيداً غالياً، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب، قيلت في مديحهم والفخر بهم فخراً لا تجف مادته في نفسه، إذ كان يستمد من معين لا ينضب وكأنه يغرف من بحر تمده أبحر، فهو لسان قبيلته، وسحب الفخر بها ما تزال تنتقد شعراً على هذا اللسان الرطب برائع القول وجزله".

وهكذا كان هجاء الفرزدق استعلاءً ومفاخرةً في لهجة عالية وتعداد لكل ما في تاريخ قومه زمن أعمال مجيدة، ولكل ما له من مواهب شعرية ومناقب فريدة، وكانت من ثم نقائض الفرزدق وجرير أشبه بمناظرات ومحاورات أدبية تاريخية، ومن ثم فقد خرج الهجاء معهما من معانيه البدوية البسيطة إلى مناظرات واسعة في حقيقة عشريتهما قيس وتميم.

---

(1) ابن المراغة : جرير، حبيش: من بني ضبة، أسرة الحارث الغساني فجر ناصيته، والعرب تأنف من جز الناصية، فهي علامة الاستعباد والذل.

(2) حباء جفنة: عطاؤه . وجفنة : جد الغساسنة ، ويسمون آل جفنة.

(3) اللئيم : الشحيح ، والدنيء النفس، والمهين. يقال لؤم بضم الهمزة لؤما ، وهو لئيم.

امتاز أسلوب شعره بجزالة اللفظ وضخامة التراكيب إذ تتناسب مع نفسه التي لم تعرف الرقة واللين، توفي سنة (114هـ).

يا سائلي أين حل الجود والكرم

عندي الجواب إذا سؤاله قدموا

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم

هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا الذي احمد المختار والده

صلى عليه الإله ما جرى القلم

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه

لخر يلثم منه ماوطا القدم

هذا علي رسول الله والده

امست بنور هداه تهتدي الأمم

هذا الذي عمه الطيار جعفر

والمقتول حمزة ليث حبه قسم

هذا ابن سيدة النسوان فاطمة

وابن الوصي الذي سيفه سقم

يكاد يمسكه عرفان راحته

ركن الحطيم أذا ما جاء يستلم

وليس قولك من هذا بضائره

العرب تعرف من أنكرت والعجم

أذا رأته قريش قال قائلها

إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

ان عد أهل التقى كانوا ائمتهم

او قيل من خير خلق الله قيل هم

هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله

بجده أنبياء الله قد ختموا

يفضي حياء ويغضي من مهابته

فما يكلم الا حين يبتسم

ينشق نور الهدى عن صبح غرته

كالشمس ينجلب عن إشراقه الظلم

مشتقة من رسول الله نبعته

طابت عناصره والخيم والشيم

الله شرفه قدما وفضله

جرى بذلك له في لوحة قلم

من جده دان فضل الأنبياء له
وفضل امته دانت له الامم
عم البرية بالإحسان وانقشعت
عنها العماية والاملاق والظلم
كلتا يديه غياث عم نفعهما
يستوكفان ولا يعروهما العدم
سهل الخليقة لاتخشى بوادره
يزينه الخصلتان العلم والكرم
الليث اهون منه حين يبغضه
والموت ايسر منه حين يهتضم
لا يخلف الوعد ميمونا نقيبته
رحب الفناء اريب حين يعتزم
من معشر حبهم دين وبغضهم
كفر وقربهم ملجأ ومعتصم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم
ولا يدانيهم قوم ان كرموا
هم الغيوث اذا ما ازمة ازمت
والأسد أسد الثرى والرأي محتدم

لا يقبض العسر بسطا من اكفهم

سيان ذلك ان اثروا وان عدموا

بكفه خيزران ريحه عبق

من كف اروع في عرنينه شمم

حمال اثقال القوم اذا فدحوا

حلوا الشمائل تحلو عنده النعم

ان قال قال بما يحوي جميعيهم

وان تكلم يوما زانه الكلم

ما قال لا قط الا في تشهده

لو لا التشهد كانت لاؤه نعم

يستدفع الضر والبلوى بحبهم

ويسترق به الاحسان والنعم

مقدم بعد ذكر الله ذكرهم

في كل بر ومختوم به الكلم

من يعر ف الله يعرف او لوية ذا

فالدين من بيت هذا ناله الامم

بيونخم من قريش يستضاء بها

في النائبات وعند الحكم ان حكموا

فجده في قريش في ارومتها

محمد وعلي بعدهم علم

بدرله شاهد والشعب من احد

والخندقان ويوم الفتح ان علموا

وخيبر وحنين يشهدان له

وفي فريضة يوم صيل قتم

مواطن قد علت في كل نائبة

على الصحابة لم اكتم وان كتموا

الشرح والتعليق :

1-القصيدة فيها مباشرة لأنها تعتمد على تعريف والتعريف بالإمام علي بن الحسين (ع) حينما شق المسلمون له طريق بيت الله الحرام بالإكبار والإجلال : فانه معروف تعرفه مكة المكرمة وبيت الله يعرفه أهلها لأنه ابن الإمام الحسين (ع) فجده محمد المصطفى وأبوه الإمام علي (ع) وعمه جعفر الطيار وحمزة سيد الشهداء وجدته فاطمة.

ثم ينادي هشام بن عبد الملك الذي تجاهل الإمام ويقول له ان قولك فيه إنكار لان قريش تعرف ان الكلام ينتهي عند أهله وإذا وصف الثقاة فهو منهم.

ويأتي مستعرضا أخلاق الإمام من الحياء الذي استمد من آبائه الكلام فهو نبعة الرسول الأكرم (ص) فمن صفاته عدم إخلاف الوعد.

وراح يعد مآثر أجداده من حيث معشرهم الكريم وصفاتهم العظيمة وبيوتهم المستضاءة وشواهدهم التاريخية في بدر واحد والخندق وفتح مكة وخيبر وحنين.

2-تعتمد صياغة القصيدة على تكرار المعاني ولكن بصور أخرى وان كانت في سياق متشابه فيستخدم (هذا) ثماني مرات وهو دليل على النداء المرتبط بالاسم الموصول إضافة إلى تعدد الصفات كقوله (النقي التقي الطاهر العلم). على الرغم من الجناس الواضح (التقي والنقي).

3-بروز اصطلاحات عمت في العصر الأموي وجسدها الشعر ونرى في هذه القصيدة كلمات (احمد المختار، الطيار جعفر، المقتول حمزة، سيدة النسوان فاطمة، ابن الوصي، الغيوث، الأسد) وقد دلت على دلالات اتفق عليها المسلمون.

4-ان استخدام المعاني الثنائية واضح في هذه القصيدة مثل (حبهم دين)، (بغضهم كفر)، (كلتها يديه غياث)، (الليث اهدى)، (الموت أيسر).

5-ختم القصيدة بحرف الميم المضموم لذا سميت القصيدة (ميمية الفرزدق) وهذا الاستعمال يجعل الإنشاد في هذه القصيدة ذا كبر قوي ومد واضح. إضافة إلى اعتماده على نظم هذه لقصيدة على البحر البسيط.

6-لا تحتاج القصيدة لبساطتها إلى التعريف بمعاني الكلمات اذ ان نسبة عالية جدا من المفردات معروفة لا تحتاج إلى شرح لا نعتقد ان هنالك من الكلمات ما يستوجب شرحها وتفسيرها فمعاني القصيدة من البساطة بحيث شكلت لوحة فنية تاريخية توضح شاهدا تاريخيا وأجاب عن سؤال ولكن إجابته بالشعر.

7-عرف الفرزدق بإغراض شعرية أخرى وابرز ذلك مشاركته في (النقائض) مع جرير والأخطل وآخرين في قصائد مهمة وذات قيمة في تاريخ أدبنا العربي.

الأخطل

هو غياث بن غوث بن الصلت التغلبي من أهل الحيرة، ويلقب بالأخطل لخبث لسانه، وبذل الصليب لأنه كان نصرانياً يعلق صليباً على صدره، وبدوبل[1] لأنه أمه كانت ترقصه به في صغره، ويكنى أبا مالك، ومالك أكبر بنيه.

نشأ الأخطل في قبيلة عزيزة الجانب شديدة البأس، حافل تاريخها بالمفاخر الكثيرة حتى قيل: " لو تأخر الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس"، وكانت تدين بالنصرانية، فلما ظهر الإسلام وانتحله العرب، أبت تغلب ان تنزل عن دينها، ورضيت بالجزية تدفعها، فأقرها عمر بن الخطاب على نصرانيتها، وكانت منازلها في الجزيرة والعراق فترعرع مزهواً بمناقب قومه، حافظاً أخبارهم وأيامهم، يعد منها ذخائر وأهباً لشاعريته التي بدأت تظهر منذ نعومة أظفاره.

ويحدثنا الرواة أنه هجا امرأة أبيه طفلاً، وكانت تضييق عليه وتؤثر بنيها باللبن والتمر والزبيب، وتبعثه يرعى عنزاً، فلحظ ذات يوم شكوة[2] فيها فيها لبن، وجراباً فيه تمر وزبيب، وكان جائعاً، فقال: " يا أماه آل فلان يزورونك ويقضون حقك وأنت لا تأتينهم وعندهم عليل، فلو أتيتهم لكان أجمل وأولى بك"، قالت: " جُزيت خيراً يا بني، لقد نبهت على مكرمة"، وقامت فلبست ثيابها ومضت إليهم، فمضى الأخطل إلى الشكوة فشرب فيها، وإلى

---

(1) الخنزير أو ولده ، وولد الحمار أو الحمار الصغير لا يكبر، والذئب والثعلب.

(2) الشكوة: وعاء من جلد للماء واللبن.

الجراب فأكل التمر والزبيب، فلما رجعت ورأت الشكوة والإناء فارغين، علمت انه قد دهاها فعمدت إلى خشبة لتضربه بها فهرب وقال:

ألم على عنبات العجوز، وشكوتها من غياث لمم[1]

فظلت تنادي: ألا ويلها! وتلعن واللعن منها أمم[2]

وكان لتغلب شاعر معروف يقال له كعب بن جعيل، فتعرض الأخطل لهجائه وهو حدث ما برح مقرزماً[3]، فضربه أبوه وقال له: "أبقرزمتك تريد أن تقاوم ابن جعيل! "، ثم لج الهجاء فأخمل الأخطل كعباً وصار شاعر تغلب غير مدافع.

ولكن ريحه لم يبدأ إلا في عهد معاوية، وكان العداء قد اشتد بين الأنصار والقرشيين وكثر الهجاء والتفاحش بين شعرائهم، ولاسيما بين عبد الرحمن بن حسان بن ثابت وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص حتى أمر معاوية بأن يجلد كل واحد منهما مائة سوط، ثم كان من أمر عبد الرحمن بن حسان أن شبب برملة بنت معاوية. فبلغ ذلك أخاها يزيد فغضب فدخل على أبيه فقال: " يا أمير المؤمنين، ألا ترى ان هذا العلج[4] من أهل يثرب يتهكم بأعراضنا ويشبب بنسائنا! "، قال: " من هو"، قال: "عبد الرحمن بن حسان"،

---

(1) اللم: الذئب الصغير. فان كانم المعنى الأول المراد أصيبت العنبات الشكواة بذئب صغير، وإن كان الثاني كان المراد ألم بالعجوز على عنباتها وشكوتها، وقوله: على عنبات من نوع القلب.

(2) الأمم: القرب ، والشيء اليسير . يقول: اللمن على قرب منها، أي يأتي لأنه ابن زوجها، أو اللمن شيء يسير منها لأنه تعود منها أكثر من ذلك.

(3) مقرزماً : يقول الشعر الرديء.

(4) العلج: الرج الضخم من كفار العجم وهو هنا الكافر على الإطلاق.

وأنشدنا ما قال، فقال : " يايزيد ليست العقوبة من احد أقبح منها من ذوي القدرة، ولكن امهل حتى يقدم وفد الأنصار، ثم ذكّرني"، فلما قدموا ذكّره به، فلما دخلوا عليه قال: " يا عبد الرحمن، ألم يبلغني أنك تشبب برملة بنت أمير المؤمنين"، قال: " بلى، ولو علمت أن أحداً أشرف به شعري أشرف منها لذكرته"، قال: " وأين أنت عن أختها هند!"، قال: " وإن لها أختاً؟ "، قال: " نعم"، وإنما أراد معاوية أن يشبب بهما جميعاً فيكذب نفسه، فلم يرض يزيد ما كان من أبيه، فأرسل إلى كعب بن جعيل بان يهجو الأنصار، فاعتذر خوفاً ودله على الأخطل، ولعل كعبا أراد ان يلقي خصمه في تهلكة لما ناله من شر لسانه، فنفعه من حيث لا يريد، فدعا يزيد الأخطل وقال له: " اهج الأنصار"، قال : أفرق من أمير المؤمنين"، فقال: " لا تخف شيئاً، أنا لك بذلك"، فهاجم وكان ما كان من أمره مع النعمان بن بشير وانتصار يزيد له فاقطع إليه يمدحه وليا للعهد وخليفة، ثم مدح الخلفاء من بعده، وجاهد حزب الزبيريين خصومهم، ودافع عن مصالح قبيلته في حروب قيس وتغلب فارتفع قدره ونبه ذكره[1].

قال ابن سلاّم وغيره : لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك: " انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما وتأتيني بخبرهما"، فانحدر مالك حتى لقيهما وسمع منهما ثم أتى أباه، فقال له: " كيف وجدتهما؟"، قال: " وجدت جريراً يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر"، فقال الأخطل: "فجرير أشعرهما"، ثم قال:

(1) أدباء العرب ص 191-192.

إني قضيت قضاء غير ذي جنف   لما سمعت ولما جاءني الخبر[1]

أن الفرزدق قد شالت نعامته   وعضه حيةٌ من قومه ذكر[2]

ثم قدم الأخطل الكوفة على بشر بن مروان، فبعث إليه قوم الفرزدق بدراهم وحملان وكسوة وخمر، وقالوا له: " لا تعن على شاعرنا واهج هذا الكلب الذي يهجو بني دارم[3]"، فلما دخل الأخطل على بشر سأله عن الفرزدق وجرير، فقال الأخطل: "أصلح الله الأمير، الفرزدق أشعر العرب"، فرد عليه جرير بقوله:

يا ذا الغباوة إن بشراً قد قضى   أن لا تجوز حكومة النشوان

ثم استطار بينهما الهجاء واضطرمت نار العداوة، وأخبارهما كثيرة.

وعمر الأخطل حتى شاخ وتحطم، وكانت وفاته في خلافة الوليد بن عبد الملك وله فيه عدة قصائد امتدحه بها، وزعم بعضهم أن الأخطل ظل مقرباً عند خلفاء بني أمية حتى ملك عمر بن عبد العزيز فأقصاه، ونقل هذه الرواية على

---

(1) الجنف: الجور والتحامل، يقول: حكمت حكماً ليس بذي جور وتحامل.

(2) شالت: ارتفعت . النعامة: القدم أو باطن القدم، وشالت نعامته : مات مأخوذ من ارتفاع باطن القدم عند الموت، أو من نفور النعامة وهي اشد الحيوان نفاراً، ولهذا قالوا للرجل اذا فرغ من شيء وارتحل أو مات: نفرت نعامته، ويقال: للقوم اذا خلت منازلهم منهم أو ارتحلوا عن منهلهم آو تفرقوا او تفرقت كلمتهم او ذهب عزهم: شالت نعامتهم. يقول:ان الفرزدق قد مات وذهب عزه بعد ان عضه حية ذكر من قومه، والحية يطلق على الذكر والانثى. وقوله : من قومه، لأن جريراً والفرزدق من بني تميم.

(3) دارم: قبيلة الفرزدق من تميم.

علاقتها بعض كتابنا المعاصرين[1]، دون أن يتنبهوا إلى تاريخ وفاة الشاعر وتاريخ خلافة عمر بن عبد العزيز[2].

وليس في ديوان الأخطل ما ينبئنا أنه أدرك عمر أو أدرك قبله سليمان بن عبد الملك[3]، ولو أدركهما لذكرهما في شعره كما ذكر غيرهما من الخلفاء الأمويين.

ورب معترض يقول إن الأخطل مدح عمر بن عبد العزيز بأبيات مثبتة في ديوانه، ونحن لا ننكر ذلك ولكننا نعلم أنه لم يمدحه بها وهو خليفة، بل مدحه وهو أمير من أمراء بني أمية ومدح معه أخاه أبا بكر فخصه بالقسم الأوفر من أبياته ولم يذكر عمر إلا في بيت الأخير حيث يقول:

فرعان ما منهما إلا أخو ثقة، ما دام في الناس حي والفتى عمر

ومما يدلنا على ان الأخطل مات في خلافة الوليد ما رواه صاحب الأغاني من ان الوليد بن عبد الملك قال لجرير يوما: " فما تقول في الأخطل؟"، قال: " ما أخرج لسان ابن النصرانية ما في صدره من شعر حتى مات" [4].

---

(1) ساروفيم فيكتور في كتابه تاريخ الاداب العربية . الأب نعمة الله المنداري في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية.

(2) خلافة عمر بن عبد العزيز من 717- 720م/99- 101هـ.

(3) خلافة سليمان من 714- 717م/96- 99هـ.

(4) ادباء العرب ص323-325.

الغزل

وهو نوعان : الغزل الحضري وتميز بأنه غزل مادي يعتني بمفاتن الجسد ويصفها بدقة وجرأة متغاضيا عن لواعج القلب وخلجاته وعن أنات النفس المعذبة وتميز أيضاً بتعدد الحبيبات والعشيقات مما يؤدي إلى عدم الإيمان بالشعر الذي يقيم العلاقات الروحية والإخلاص لحبيبة واحدة فهم شعراء مفتونون بالجمال يلاحقونه أينما وجد فلا يخلصون إلا له تماما ومن شعرائه عمر بن أبي ربيعة، والثاني الغزل العذري ويقال له البدوي وهو غزل ينطلق من إيمانه الشاعر بالحب فيروح يتحدث عما يشعر به اتجاه حبيبته وعما يعانيه من الم الفراق ولوعة لبعد طارحا أمام قلبه المتيم معددا خصال حبيبته من عفة ووفاء وإخلاص وقلما يتم الشاعر بجمال حبيبته لان عذابه يحرمه من التفكير بأمور هكذا وان قلة الوصال والخوف يمنعانه حتى التأمل في وجهها وذكراها ويلاحقه هذا الحب حتى بعد الموت وهذا ما يظهر لنا الاهتمام بالجانب الروحي، قال جميل :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حبها

ولابد من شكوى حبيب يروع

فيا رب حببني إليها وأعطني الـ

مودة منها أنت تعطي وتمنع

وظهرت الأفكار الإسلامية مثل العفو والمغفرة وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة والحلال والحرام ووافق هذا الشعر قصص غزيرة فيه البساطة والسذاجة واضحة وقدم احكم الرواة نسجها قال عروة بن حزام :

وانى لتعروني لذكراك رعشة

لها بين جلدي والعظام دبيب

فو الله لا أنساك ما هبت الصبا

وما أعقبتها في الرياح جنوب

لم تخل العصور الأدبية السابقة من الغزل، ولكنه في عهد بني أمية قد طما سيله لتوفر عوامله ونحن نعني بالغزل هنا، ما استقل بذاته ولم يأت وسيلة للكلام على غيره من أغراض الشعر المعهودة، التي رأيناها في الجاهلية، وأصبحت بعد ذلك العهد تقليداً يجري عليه الشعراء في افتتاح القصائد المدحية وغيرها، وهذا الغزل الجديد لا نجده إلا نادراً في الشام والعراق وذلك ان الشام أصبح مقر الخلافة الأموية، كما كان العراق مقر المعارضة، فكان البلدان ميدان السياسة لا مقر السكينة والفراغ وكان فيهما الغزل التقليدي على أسلوبه القديم، إنما نشأ الغزل الجديد في الحجاز من البلاد العربية الخالصة.

كان الغزل في هذا العصر على نوعين الغزل البدوي، والغزل الحضري، أما البدوي فهو غزل العذريتين الذين يتغنون بالحب الافلاطوني العفيف، وأشهر أصحابه: جميل بن معمر صاحب بثينة، وليلى الأخيلية صاحبة توبة بن حمير، والمجنون العامري صاحب ليلى، وقيس ين ذريح صاحب لبنى.

وأما الحضري فهو غزل اباحي يتغنى فيه الشاعر بالحب وملذاته الجسدية، منصرفاً فيه إلى الوصف القصصي الواقعي من غير ما خجل ولا حياء، وأشهر أصحابه عمر بن أبي ربيعة والاحوص، وقد ألحقنا بهما الوليد بن يزيد.

كان الحجاز قلب الإمبراطورية العربية الجديدة، اذ اتخذ محمد المدينة داراً لهجرته، ثم اتخذها الخلفاء مقراً لعاصمة الدولة، فكانت من الوجهة الدينية ومن الوجهة السياسية محطاً للأنظار، ومن الحجاز خرجت الجيوش العربية لفتح الأمصار، فاندفقت على المدينة كنوز الأرض كما اندفق عليها الموالي من فرس وروم، وشاميين ومصريين، وكان ذلك كله عاملاً كبيراً في إنشاء حضارة جديدة اختلط فيها العرب بالشعوب الأعجمية، وغاص فيها عرب المدينة بالترف والثراء.

وما ان انتقت الخلافة إلى بني أمية حتى تبدلت الحال بغيرها، فانتقلت السياسة من الحجاز إلى الشام، وقام أهل الحجاز في صفوف المعارضين لبني أمية، فانصرف عنهم الأمويون ولم يستخدموهم في وظائف الدولة الكبرى الا فيما ندر، ثم أهال الامويون على أهل المدينة الأموال الطائلة لصرفهم عن السياسة كما كبحوا جماح البدو ومنعوهم من الغزوات والغارات، فكان من ذلك كله بيئة فراغ.

أما في البادية من نجد والحجاز فقد اجتمع الحرمان والكبح مع الفقر وكانت نتيجة ذلك نغمة زهد أو ميل إلى المثل العليا، وكان هذا الميل قسمين: دينيا وغزلاً عفيفاً.

وأما في الحاضرة فقد اجتمع اليأس مع وفرة المال والثروة، فكان أبناء المهاجرين والأنصار في مكة والمدينة مثرين، واليأس والثروة أنتجا اللهو والإسراف في اللهو، فقد نشأت طبقة من الشبان الفارغين كانت حياتهم الاجتماعية حياة مجون وإثم، ساعدهم على ذلك كثرة الرقيق وما انتشر في البلاد من ضروب الملاهي ولاسيما الغناء وما صحبه من موسيقى فشت في

المدينة فشواً واسعاً جداً، وقد نهض الموالي من المغنين والمغنيات بهذا الغناء نهضة شديدة، واقترنت هذه النهضة الغنائية بنهضة كبيرة في فن الشعر الذي يغنى ويصحب بالضرب والعزف على الآلات الموسيقية، وهو شعر يدور في اغلبه على الحب ووقائعه، وكان في أكثر جوانبه غزلاً مكشوفاً ينشر الفساد مع الغناء[1].

الغزل العذري

الغزل العذري هو الذي يصدر عن عاطفة صادقة، وحب عميق، وصبابة متأججة، وهوى مشتعل، ملك على المرء قلبه، وسلب لبه، وطغى على جميع مشاعره، وصرفه عن الحياة وشهواتها، وسلط كل ما فيه من عاطفة وإحساس إلى المعبودة التي لا يرى في الحياة أجمل منها، وإن لم تكن من أجمل النساء، فلها يعيش، وعليها يقف حياته وفنه، وحبه وشعره، وعماد هذا اللون الصدق في العاطفة، والعفة في القول، والتفاني في المحبوب والضراعة في الحب، فلا يتناول الشاعر الوامق مفاتن الجسم، ولا محاسن الأعضاء، ولا ما يثير الشهوة، أو يناقض العفة، وإنما يعتمد على المعاني الروحية والنوازع القلبية، ويشكو ما يكابد من آلام البعد، وقسوة الحرمان والصد، وتجهم الأيام، ومعاكسة الزمان، وقد تقنعه النظرة العاجلة، أو الوعد المكذوب كما يقول جميل:

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو ابصره الواشي لقرت بلابله

(1) تاريخ الأدب العرب – حنا الفاخوري ص244-246.

بـــلا وبـــألا أســـتطيع وبـــالمنى   وبالأمـل المرجـو قـد خـاب آملـه
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى   أواخـــره لا نلتقـــى وأوائلـــه

فهو لون حزين باك، يستثير الشفقة، ويبعث الرحمة، ويدعو إلى الرثاء يزهد صاحبه في الحياة، حتى يسترخص كل غال في سبيل من يحب، ويستعذب محل ألم من أجله، ويتمنى لنفسه أسوأ الأماني، وأنكد الحالات وشر ألوان الضرر، ما دام ذلك من أجل المحبوبة:

ألا ليـتني أعمـى أصـم تقـودني   بثينـة لا يخفـى علـيّ كلامهـا

وهذا اللون الذي يقف فيه الشاعر وحبه وشعره على محبوبة واحدة، هو الذي يعرف بالحب العذري، نسبة إلى بني عذرة، وهي قبيلة بدوية من بني قضاعة، اشتهر شبابها بالحب البريء الصادق، والهوى العفيف المضني، والموت في سبيل المحبوب، حتى قيل لرجل منهم : ما بال العشق يقتلكم يا بني عذرة ؟ فقال : لأن فينا جمالاً وعفة!، وهذا النوع لم يكن له وجود قبل هذا العصر، فهو بهذا يعد جديداً كل الجدة، ومن أظهر شعرائه : جميل بثينة، وقيس بن الملوح صاحب ليلى العامرية، وقيس ابن ذريح صاحب لبنى[1].

(1) الحياة الأدبية – عصر بني أمية ص122-123.

عمر بن ابي ربيعة

ان في شعر عمر بن أبي ربيعة ما يصور لك طريقته الشعرية ومذهبه في الحياة، فقد قصر شعره على الغزل وحده لا يعدوه والتشبيب بكل من رأى من حسان النساء، ولم يكن من أولئك الشعراء الذين أخلصوا قلوبهم وشعرهم لامرأة واحدة، فهو شاعر يتغنى بالجمال اين كان، ولا يعرف الاختصاص في العاطفة والحب، ولاشك أن لنشأة عمر والبيئة التي عاش فيها أثراُ غير قليل في ذلك، فقد عاش في فترة من الزمن ظهرت فيها آثار البذخ والترف في الحجاز، بما انصب في حجور الحجازين من ثراء أريد به صرفهم عن شؤون السياسة والخلافة، فشادوا القصور وعمروها بضروب الزينة والمتع، واقتنوا الجواري، وعقد ناس من المترفين مجالس الغناء والعزف واشتهر في هذا العهد كثير من المغنين والمغنيات، كالغريض وابن سريج وجميلة وسلامة.

وكان ابن أبي ربيعة أصدق مثل لتلك العاطفة من الشباب اللاهي المترف، فقد شب في بيت غنى وثراء، وكان أبوه عبدالله المخزومي تاجراً موسراً من كبار تجار قريش، ومن ساداتها وأشرافها، وقد استعمله الرسول ﷺ على (الجند) من أعمال اليمن وسبقت له معرفة بهذه البلاد حين كان يتردد إليها بقصد التجارة، وقد تزوج من إحدى عقائلها هي (مجد) أم عمر، وتوفى وعمر لم يجاوز الثانية عشرة من عمره، فقامت أمه بكفالته وتربيته، فنشأ في مكة نشأة الغنى والترف والدلال، بما كان خلف له أبوه من واسع المال، فلم يكن في حاجة إلى الامتهان والتكسب، فقرض الشعر ناشئاً يصور فيه لهوه ومتعه، والشباب والفراغ والجدة مفسدة لصاحبها فاندفع إلى مباكرة اللذات واغتنام الأوقات، ومعاشرة النسوة، ومرافقة أهل الغناء، ينظم لهم، ويلحنون له

ما ينظم، وكان طبيعياً ان يصور في شعره نزعات نفسه وخلجات شعوره وسيرة حياته عامة، فكان من كل ذلك هذا الغزل الذي عرف به، لا يطلب سواه وبرع في وصف أحوال النساء، ولم يتورع عن التشبيب بكل من رأى حتى بالمحصنات من أشراف الأسر والبيوتات، فكان يتلقاهن حفائظ الأسر، ونقمت قريش منه ما يفعل فلم يرعوا واضطر السلطان إلى نفيه، فألقى في جزيرة في البحر الأحمر، ثم عاهد الله والسلطان على التوبة، وهجر الشعر، واقسم ان لا يقول بيتاً إلا عتق فيه رقبة، وتوفي سنة 93هـ على الأرجح.

ويكاد أكثر شعره يقوم عليه فهو ينقل أحاديث النساء وألفاظهن وأسئلتهن وخواطرهن وأحاسيسهن نقلاً أميناً، فكان هذا الضرب من شعره في الحقيقة صوراً حية ناطقة للمشاهد والحوادث التي جرت له، وهذه مزية برع بها ابن أبي ربيعة، وبلغ في ذلك ما لم يبلغه أحد ولا بعده، وذلك ما دعا جريراً إلى ان يقول: " ما زال هذا الفتى من قريش يهذي حتى قال الشعر، هذا-والله- ما كانت تطلبه الشعراء، ففاتهم".

والذي يستخلص من درس شعر عمر على كثرته أن أسلوبه يتميز بالسهولة واللين ويصور الترف واللهو في هذه الفترة، وقد جعل منه المغنون مادة لغتهم لا تنضب، وكان عمر يقصد بشعره الى ذلك قصداً، فينظم ما يصلح الموسيقى والغناء، فكانت صلته بالغريض وابن سريج وأمثالها صلة فن ومشاركة صناعة، ولذا يختار لشعره من الأوزان ما يصلح للتلحين، وأصلحها هي البحور القصار، والمجزوء من البحور (أي المقطوع جزء منه وهو العروض والضرب) فلذلك استكثر منها.

ونجد عمر بن أبي ربيعة يخالف طريقة الشعراء الغزلين في تصويره المرأة وتغزله بها ، فالمعروف ان جميع شعراء العرب نظروا إلى المرأة على أنها معشوقة لا عاشقة، ومطلوبة لا طالبة، فدار غزلتم على هذا ، وأوصاف اللوعة والوجد والضنى والتسهيد والعذاب، واللهفة إلى اللقاء وعذل العاذلات وأمثالها ، إنما هي من نصيب الرجل في العادة لا المرأة، ولا يليق ان تذكر المرأة به عندهم لأنه يغض من شانها ، ولكن ابن أبي ربيعة لم يشأ ان يجري على هذه الطريقة بل صور المرأة على أنها هي العاشقة وهو المعشوق، وهي التابعة وهو المتبوع، وأن صواحبه من اللائي يطلبنه ويترقبنه ويتقصين أخباره، ويغتنمن الفرص للقائه واعتراض سبيله، وقد يقابلهم هو بالتأبي والصدود والتيه والدلال، وربما كان لنشأته وعيشه التدلل والنعومة التي عاشها أثر في سلوكه هذه الطريقة[1].

(1) الأساس ص250-252.

جميل بن معمر

هو جميل بن معمر العذري، نشا في منازل عذرة بوادي القرى واخذ يزور المدينة ومكة ويلقى عمر بن ربيعة يناشده الشعر كما اتصل بعبد العزيز بن مروان والي مصر وكان كثير عزة راوية لشعرة اهتم مغنو المدينة بشعرة.

عشق جميل بثينة من بنات عمومته وتحابا صغيرين ثم لهمته الشعر وانتهى به إلى الهيام بها فضيق أهلها الخناق لورود اسمها في شعرة رغم ان حبة نقي ويقوم بخطبتها لكنهم يزوجونها رجلا آخر ويمضي يشكو حبة ويحاول ان يلقاها لكنة يرحل وهو يتغنى اسمها وظل متحملا من عشقها ما تحمل وتمضي الأعوام وحبة يزداد وذكرها لا يبرح مخيلته بل هي ساكنة في قلبه كان صادق اللهجة حار العاطفة وبقيت بثينة تحفظ له حبة حتى توفي في مصر سنة82 هـ، وخلط شعره شعر شعراء آخرين من بني عذرة ورافقه قصص العشاق ورواياتهم ويعد جميل مثلاً واضحاً للشعر العذري البدوي في العصر الأموي.

إلا ليت ريعان الشباب جديد

ودهرا تولى يابثين يعودُ

فنبقى كما كنا نكون وانتم

قريب واذ ما تبذلين زهيد

وما انس م الاشياء لا انس قولها

وقد قربت نضوى : أمصر تريد؟

ولا قولها :لولا العيون التي ترى

لزرتك، فاعذرني فدتك جدو

خليلي، ما القى من الوجد باطن

ودمعي بما اخفي الغداة شهيد

الا قد ارى والله ان رب عبرة

اذا الدار شطت بيننا، ستزيد

إذا قلت : ما بي يابثينة قاتلي

من الحب، قالت ثابت ويزيد

وان قلت : ردي بعض عقلي اعش به

تولت وقالت :ذاك منك بعيد

فلا انا مردود بما جئت طالبها

ولا حبها فيما يبيد يبيد

جزتك الجوازي، يا بثين، سلامة

اذا ما خليل بان وهو حميد

وقلت لها : بيني وبينك، فاعلمي

من الله ميثاق له وعهود

وقد كان جبيكم طربنا وتالدا

وما الحب الا طارف وتليد

وان عروض الوصل بيني وبينها

وان سهلته بالمنى، لكؤود

وافنيت عمري بانتظاري وعدها

وابليت فيها الدهر وهو جديد

فليت وشاة الناس، بيني وبينها

يدوف لهم سما طماطم سود

وليتهم في كل ممسى وشارق

تضاعفت اكبال لهم وقيود

ويحسب نسوان من الجهل انني

اذا جئت، اياهن، كنت اريد

فاقسم طرفي بينهن فيستوي

وفي الصدر بون بينهن بعيد

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة

بوادي القرى، اني اذن لسعيد

وهل اهبطن ارضا تظل رياحها

لها بالثنايا القاويات وئيد

وهل القين سعدى من الدهر مرة

وما رث من حبل الصفاء جديد؟

وقد تلتقي الاشتات بعد تفرق
وقد تدرك الحاجات وهي بعيد
وهل ازجرن حرفا علاة شملة
بخرق، تباريها سواهم رقود
ستبني بعيني جؤذر وسط ربرب
وصدر كفاثور اللجين، وجيد
تزيف كما زافت الى سلفاتها
مباهية طي الوشاح مبود
اذا جئتها يوما من الدهر زائرا
تعرض منفوض اليدين صدود
يصد ويغضي عن هواي ويجتني
ذنوبا عليها انه لعنود
فاصرمها خوفا كاني مجانب
ويغفل عنا مرة فنعود
ومن يعط في الدنيا قرينا كمثله
فذلك في عيش الحاة رغيد
يموت الهوى من اذا ما لقيتها
ويحيا اذا فارقتها فيعود

يقولون :جاهد ياجميل بغزوة

واي جهاد غيرهن اريد

لكل حديث بينهن بشاشة

وكل قتيل عندهن شهيد

واحسن ايامي وابهج عيشتي

اذا هيج بي يوما وهن قعود

تذكرت ليلى فالفؤاد عميد

وشطت نواها فالمزار بعيد

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل

الى اليوم ينمي حبها ويزيد

فما ذكر الخلان الا ذكرتها

و لا البخل الا قلت سوف تجود

اذا فكرت قالت : لقد ادركت وده

وما ضرني بخلي فكيف

فلو تكشف الأحشاء صودف تحتها

لبثنة حب طارف وتليد

الم تعلمي يا ام ذي الودع انني

اضاحك ذكراهم وانت صلود

فهل القين فردا بثينة ليلة

تجود لنا من ودها ونجود

ومن كان بحب بثينة يمتري

فبرقاء ذي ضال علي شهيد

المعنى واختلاف الرواة.

1.فنغنى بدلا من (فنبقى) أيام الصفاء بدلا من (ريعان الشباب).

2.الأشياء :أي من الأشياء : استعملت في الشعر، نضوي : ناقتي الهزيلة.

3.ما القى : ما اخفى، باطن : ظاهر.

4.ستزود بدلا من (ستزيد) وترود أي تذهب ونجئ يريد غير ماء العين فيها ، شطت : بعدت.

5.مع الناس بدلا من (تولت).

6.الجوازي : جمع الجازية ، وهي المكافأة.

7.طارف وتليد : حديث وقديم.

8.العروض : الطريق في عرض الجبل في مضييق. كؤود : لصعود.

9.وعدها : نوالها. وابليت في الدهر : وأبلت بذلك الدهر. يدوف : يخلط ويبل : الطماطم : الذين في لسانهم عجمة ، واحدهم طمطم، الأكبال : جمل كبل وهو القيد العظيم.

10.الشطر الاول : مناقسم طرف العين ان يعرف الهوى. الصدر : النفس.

11.وادي القرى : موضع قرب المدينة كان يقيم فيها جميل وبثينة.

12.الثنايا :جمع ثنية وهي العقبة اوطريقها. القاويات : الخاليات، الوئيد :الصوت العالي الشديد.

13.الشطر الأول : وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسة.

14.الحرف : الناقة الضامرة، العلاة الناقة المشرفة، الشملة : الناقة السريعة. الخرف الأرض الواسعة التي تنحرف فيها الرياح. السواهم : النوق الضوامر. القود : المذللة، واحدها : قود وقوداء.

15.مرهوب : أي مكان او طريق مرهوب، النشوز : جمع نشز وهو المكان المرتفع. الهلال : المنتجعون الذين ظلوا الطريق. رقود : نيام، أي كان النشوز قدم نيام.

16.الفاثور : الطست، اللجين : الفضة. العجين : الرخام.

17.تزيف : تتبختر في مشيتها. سالفاتها : نساء اخوة زوجها.

18.المنفوض:من اصابة رعدة الحمى، وهنا الرعدة من الغضب والغيرة،والمراد به زوجها.

19.ذنوبا عليها : علي ذنوب.

20.مرة : تارة.

21.قرينا : أي زوجة.

22.الشطر الأول : لكل لقاء نلتقيه بشاشة.

23.العميد : العاشق الذي هده العشق.

24.فكيف : ففيم.

25.الودع :خرز بيض تخرج من البحر شقها كشق النواة تعلق في عنق الولد لدفع العين، صلود بخيلة جدا.

26.يمتري :يشك. البرقاء : غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلفة. الضال : شجرة او هو السدر البري وهو هنا موضع بعينه ذكره ياقوت واستشهد بشعر جميل، وكان جميل وبثينة يجتمعان فيه.

التحليل :

1.يبدأ الشاعر قصيدته بالحديث عن أمنية يعود فيها شبابه او أيام صفائه، لأنه في تلك العودة تجددا لحبه وغرامه فيتذكر من تجربته القديمة مع بثينة الأشياء الكثيرة فمرة يتذكر قولها وقد اقتربت منه تسأله عن وجهة سفره (أمصر تريد؟) ومرة يتذكر منها امتناعها عن وداعه لأنها تخشى عيون الرقباء، فيكتم وجده وآلامه ويحزن كل الحزن فتنطلق دموعه وعبراته شاهدا على حزنه وألمه العميقين، وبعد ان يصور هذا الألم يحاول ان يرسم لنا صورة عن بثينة اذ يبدو أنها كانت ترتاح لألمه وإنها كانت تجد في جنونه شيئا يسعدها عندما يقول:

2.ان قلت : ردي بعض عقلي اعش به مع الناس قالت ذلك منك بعيد فيبقى ينتظر وعها منتظرا بثينة وبان بينه وبينها أكثر من عهد وميثاق فيتوهج انفعاله وثير نفسه ويتوهم في بيت رائع يكشف لنا ان الحب لم يكن متبادلا بين الاثنين كما نتصور وهو قوله :

فأفنيت عمري بانتظار وعيدها

وأبليت فيها الدهر وهو جديد

فقد كانت تنمي في نفسه الأمل وتخلق في روحه الأمنية وعندما كبر حبه وجاء كي يقطف ثمار أمله وأمانيه ابتعدت عنه، الأمر الذي يجعلنا نؤمن بان بثينة كانت تميل مع الهوى أو بعبارة أخرى كانت تتلاعب بعواطف جميل عندما يقول :

ستبني بعيني جؤذر وسط ربرب

وصدر كفاثور اللجين وحيد

تزيف كما زافت سلفاتها

مباهية طي الوشاح ميود

ان لغة القصيدة لا تختلف من حيث النقاء والقوة في التعبير عن لغة الشعر التي تعاصرت معه هذه القصيدة اذ ان اللغة العربية بدأت تطل في هذه العصر على لغات أخرى في بيئات لا عهد للغة العربية بها فنشأ نتيجة لاتساع الإمبراطورية الإسلامية المتمثلة في لغتها ان بدا الخطأ واللحن يتسربان إلى جسد هذه اللغة الشابة الفتية وكانت الحاجة ملحة وضرورية لوضع مقياس عقلي مقبول يحفظ للغة القران ولغة الحديث سلامتها وابتعادها عن آي خطأ فكانت النواة الأولى لنشأة علوم اللغة العربية فديوان العذريين يمثل مرحلة مهمة من مراحل تطور اللغة العربية ويعد متمما للفصاحة وسلامة التعبير التي امتازت بها عربية لغة الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام لذلك استشهد بأبيات كثيرة بلغة العذريين في مناقشات لغوية ونحوية ومعجميه وأدبية.

3.ان القصيدة تبدو مضطربة من حيث الوحدة الموضوعية فالشاعر ينقل من معنى إلى معنى رغم ان معانيه معروفة ومكررة لا تخرج من انه متألم بثينة لأنها لم تلتزم بالعهد والميثاق ويثور على الوشاة الذين افسدوا عليه علاقته مع بثينة ثم يعود إلى تكرار الرغبة والأمنية للحصول على بثينة لذلك نستطيع ان نقدم ونؤخر في تسلسل أبيات هذه الدالية دون ان يختل المعنى العام ومعنى ذلك صياغة هذه القصيدة قد اعتمدت على وحدة البيت قبل وحدة القصيدة وسبب ذلك يعود إلى ان هذه الدالية كانت قد تبنت الأسلوب الوصفي في تجسيد معانيها لذلك فالبيت الواحد فيها يبدو أكثر حرية من البيت الذي ينظم في قصيدة ذات أسلوب قصصي فالبيت القصصي مفيد بحدث من الإحداث له وحدة زمنية ومكانية لذلك جاءت الوحدة الموضوعية منسجمة كل الانسجام في قصيدة عمر بن أبي ربيعة بينما اضطرابات هذا الوحدة على حساب روعة وحدة البيت في قصيدة جميل.

4.في القصيدة بعض الإشارات إلى ما يسمى بالمعاني البلاغية من طباق وتورية ومجاز، ففي بيته، بيته (يموت الهوى...) نجد طباقا عفويا طبيعيا بين (يموت ويحيا)، وبين (فارقتها ولقيتها) بالإضافة إلى استعمال كلمتي (يموت ويحيا) في معنى مجازي رائع.

الفنون النثرية

النثر الأدبي أو الفني هو الكلام الذي يصور العقل والشعور، ولا يتقيد بوزن أو قافية، ويرى الباحثون من الأدباؤ المحدثين، ومن بينهم الدكتور طه حسين، أن القرن الول الهجري لم يكن فيه نثر فني يعتد به، إنما كان الشأن للشعر، وقد احتذى الدكتور في ذلك حذو الأستاذ مرسيه الفرنسي، وهو أول من ذهب إلى ذلك، وإلى أن النثر الفني في الأدب العربي يبتدئ بابن المقفع، وابن المقفع في نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات الجديدة في الإنشاء العربي، وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبي في اللغة العربية، وقد آمن الدكتور طه حسين بهذا الرأي وبأن الشعر أسبق من النثر الفني في آداب اللغة العربية، وأذاع ذلك في كثير من مؤلفاته، وقد ثار بعض الباحثين في وجه هذه النظرية وهاجموها.

وهذه النظرية- وهي أن الشعر سبق النثر الفني في الوجود- نجد أصولها عند أرسطو في كتابه (الشعر) فهو يقول فيه : " والقدم من الأشعار الأقصر والأولون كانوا يقرون الاعتقاد في النفوس بالتخييل الشعري، ثم نبغت الخطابة بعد ذلك، وهي نوع من أنواع النثر، وقد عمم بعض المحدثين من المستشرقين ذلك الحكم، فذهبوا إلى أن الشعر أسبق من النثر الفني وجوداً، على أن بعض المستشرقين من علماء الألمان كجولد زيهر وبروكلمان يؤكدون بأن السجع كان المرحلة التي عبرها النثر إلى الشعر عند العرب.

ونحن لا نميل إلى هذا الرأي الجديد ولا نؤيده، فالقرآن أثر من أثار النثر الفني، وكذلك الكتب الدينية والأدبية القديمة التي يشير إليها القرآن الكريم، وكثير من الأمم القديمة كان لها نثر فني قبل الميلاد بكثير:

فلليونانيين آثار كبيرة في الخطابة من قبل الميلاد، بقرون عديدة، وللرومانيين آثار فيها قبل الميلاد وبعده، فلماذا لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون؟ مع أن لعبد الحميد الكاتب آثاراً كبيرة في النثر الفني وهو قبل ابن المقفع على أي حال، والقدماء من النقاد يؤيدون سبق النثر للشعر، فابن رشيق يقول: وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها، وصنعوا أعاريض جعلوها موازين للكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً... وكذلك صنع كثير من الباحثين كالزهاوي وسواء.

وإذاً فالنثر الفني في الأدب العربي وجد قبل القرآن بقليل وصاحب نزول القرآن وتأثر به تأثراً عظيماً، ثم اتصل المسلمون بالفرس بعد الفتح الإسلامي، واحتذوهم في ألوان من أدبهم احتذاء ظهر أثره في النثر الفني منذ آخر القرن الأول الهجري على أيدي بعض الكتّاب.

كان كثير من الكتاب والموالي يعرف اللغة الفارسية [1]، وبعضهم كان يعرف الرومية أو اليونانية أو السريانية مما كان له أثر في النثر.

فزيد بن ثابت تعلم كما يقال بالفارسية من رسول كسرى والرومية من صاحب النبي، والحبشية من خادم النبي، والقبطية من خادمه، وتعلم السريانية بأمر الرسول الكريم، وأمره الرسول بتعلم كتابة اليهود كما يقول أحمد أمين [2]، وأبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وأستاذ عبد الحميد الكاتب، وأحد الواضعين لنظام الرسائل نقل رسائل أرسطو إلى الإسكندر

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ 1: 295.

(2) فجر الإسلام 171.

إلى العربية مما يدل على معرفته غير اللغة العربية، وله رسائل في مائة ورقة كما يقول ابن النديم في الفهرست [1]، وكان جبلة بن سالم كاتب هشام أحد النقلة من الفارسي إلى العربي، وكذلك كان عبد الحميد الكاتب يعرف الفارسية، وقد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي، وهو أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية، وكذلك كان ابن المقفع وهو من سلالة فارسية عريقة، ومن ذلك يظهر بوضوح أثر الثقافات والأدب الفارسي على الخصوص في تطور الكتابة والنثر الفني في أدب لغتنا العربية؛ ويقول الجاحظ عن غيلان الدمشقي الذي قتله هشام بن عبد الملك: إن له رسائل بليغة [2]. والظاهر أن غيلان كان يعرف الرومية.

وعبد الحميد الكاتب هو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل، وعنه أخذ المترسلون، وهو أحد كتّاب القرن الثاني الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين، وهو أول من فتق أكمام البلاغة، وسهل طرقها وفك رقاب الشعر، وآلت إليه زعامة الكتابة فمهد سبلها ووضع معالمها، ورسم لها رسوماً خاصة في بدئها وختامها والإطناب فيها مرة والإيجاز أخرى. فكان بذلك شيخ الكتاب، وبحق لقد قيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد.

ثم ازداد أثر الفارسية في النثر الأدبي؛ فنقل الفرس إلى العربية القصص الغرامي كما نقلوا الغزل بالمذكر إلى الشعر العربي.

---

(1) الفهرست لابن النديم 117.

(2) البيان والتبيين 1: 295.

وظهر ابن المقفع (المتوفى عام 143هـ) وأحدث أثره في النثر الأدبي، وفي تطوره، وكان ابن المقفع من عنصر فارسي، وهو أحد النقلة من الفارسية إلى العربية.

وابن المقفع هو إمام المنشئين في آخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، وكان إمام الطبقة الأولى من الكتاب في العصر العباسي، وهي الطبقة التي أدركت الدولتين، ومن شخصياتها : يحيى بن زياد الحاثي، وعمارة بن حمزة وأبو ايوب وزير المنصور وكاتبه، وقد آخى ابن المقفع في طريقته بين التفكير الفارسي والبلاغة العربية، وكان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير. فأدبه وإن كان عربي اللفظ والأسلوب فهو أعجمي الفكر والتأليف، فقد استخلص من الأسلوب أفكاره وحسن تقسيمها ؛ من حيث يغلب على أسلوب عبد الحميد الصبغة العربية، كما تشيع فيه الحكمة التي يروضها بعذوبة ألفاظه وسلامة اسلوبه، وحقاً لقد كان أمة في البلاغة ورصانة القول وشرف المعاني مع وضوح الغرض وسمو الاسلوب، وهو أكثر كتاب عصره تأنقاً في صوغ الجملة فكان يقوم في النثر بما كان يقوم به زهير في الشعر، وهو أحد الكتّاب الذين لم يلتزموا السجع فكان في كلامهم قليلاًن ولكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ في الفصول والمقاطع إلا في مواضع بصيرة، وقد اهتموا ببسط المعاني وتأكيدها وتركوا مذهب الإيجاز الذي كان شائعاً في القرن الأول إلى الإطناب وتوزيع العبارة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات وتوخى الإفهام... وابن المقفع أول من أفسح مكان الأدب العربي بالترجمة، فهو الذي ترجم كليلة ودمنة مما ينم على جهد بذله المترجم في تحرير الخصائص الهندية الصميمة التي

للكاتب الأصلي (بنشاشترا) ليجعله ملائماً للذوق العربي، وأضاف إليه فصولاً جديدة في مواضع مختلفة[1].

(1) الحياة الأدبية : عصر بني مية ص 221-224.

زياد بن أبيه

هو زياد بن أبيه، وزياد بن سُميّة، وزياد بن أبي سُفْيان، وزياد بن عُبيد[1]، لأنّه لم يكن له اب شرعي يُعرف به. ولد بالطائف في السنة الثامنة للهجرة، وقيل في السنة الأولى. وأُمّه سُميّة مولاة للطبيب الحرث بن كَلَدة الثّقفي.

وظهرت النجابة على زياد منذ حداثته فعُرف بالفصاحة والدهاء، والحزم والشدة، ولما نشأ استكتبه أبو موسى الأشعري، وهو على البصرة من قِبَل عمر، فأُعجب به الناس. ثم عهد إليه عمر في مهمة فأحسن القيام بها، ولما عاد خطب في حضرة عمرن وعنده المهاجرون والأمصار، فدهشوا لفصاحته وقال عمرو بن العاص، وكان حاضراً : " لله در هذا الغلام ! لو كان أبوه قرشياً لساق العرب بعصاه ! " فقال أبو سفيان : " إني أعرف أباه. " قال عمر " من هو. " قال : " أنا هو " وبهذا القول تمسك معاوية حين استلحق زياداً بأبيه.

ولايته على فارس

ولما استُخلف عليّ استعمل زياداً على فارس فأخمد ثورتها وضبطها وحمى قلاعها. فساء ذلك معاوية فكتب إلى زياد يتوعدّه بولادة أبي سفيان أباه. فلما قرأ زياد كتابه قام في الناس خطيباً وقال : " العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد، ورأس النّفاق ! يخوّفني بقصده إيّاي، وبيني وبينه ابنُ عمّ

(1) عبيد : غلام رومي للحرث بن كلدة قيل إنه تزوج سمية أم زياد.

رسـول الله في المهـاجرين والأنصـار. ولـو آذن لـي في لقائـه، اوجـدن أحمـر [1] مخشياً ضرّاباً بالسيف".

وبلغ ذلك عليّاً فكتب إليه : " إني ولّيتُك ما ولّيتك وأنا أراك له أهلاً. وقد كانت من أبي سفيان فلَتَةٌ من أمانيّ الباطل، وكذب النفس، لا توجب له ميراثاً، ولا تُحِلّ له نسَباً، وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، فاحذر ثم احذر والسلام ! ".

ولايته على البصرة

ولما قُتل عليّ صالح معاوية زياداً واستلحقه بنسبه ليستميله ويستصفي مودته. ثم ولاه البصرة وأعمالها: خُراسان وسِجستان. ثم جمع له الهند والبحرين وعُمان. فقدم زياد البصرة والمعارضة مستفحلة، والفسوق عن الدين متفشٍ فيها، فخطب في الناس خطبته البتراء [2] وجدَ في إقامة الشرائع التي قررها، فكان أوّل من شدّد أمر السلطان، وأخذ بالظنّة، وعاقب على الشبهة حتى هابه الناس، وأذعن المعارضون، وساد الأمن فكان الشيء يسقط من يد المرأة أو الرجل فما تُمتَدّ إليه حتى يعود صاحبه فيجده في مكانه فيأخذه. وأصبح الناس لا يغلقون أبوابهم اطمئناناً. وقيل إنّه أول من سير بين يديه بالحراب والعمد.

(1) الأحمر : الموت الشديد.

(2) الخطبة البتراء: التي لم يذكر فيها الحمدلة والتصلية أي آن تستهل بحمد الله والصلاة على النبي.

ولمّا مات المُغيرة بن شُعبة أمير الكوفة استعمل معاوية زياداً عليها فكان أول من جُمع له العراقان، فكان يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة مثلها.

ولما دخل الكوفة وخطب في الناس حصبوه، فأمسك حتى فرغوا، ثم أسرّ إلى أصحابه أن يمسكوا الأبواب، وأخذ كرسياً وجلس على باب المسجد، وقبض على من وقعت الشبهة عليهم وقطع أيديهم.

أصيب زياد بالطاعون فقضى حياته. وزعموا أن السبب في ذلك أنّه كتب إلى معاوية: " إني قد ضبطت العراق بشمالي، ويميني فارغة فاشغلها بالحجاز " فكتب له عهده على الحجاز، فأنف أهل الحجاز من ذلك، فاجتمع نفر منهم ودعوا عليه، وكان من دعائهم " اللهم أكفنا شرّ زياد " فخرجت طاعونة في إصبع يمينه. فلما حضرته الوفاة دعا شُريحاً القاضي وقال : " أمرتُ بقطعها فأشر عليّ ؟ " فقال شُريح : " إني أخشى أن يكون الأجل قد دنا فتلقى الله أجذَم [1] وقد قطعت يدك كراهة لقائه. أو أن يكون في الأجل تأخير فتعيش أجذم ويعيّر ولدَك ؟ " فقال : " لا أبيت والطاعون في لحاف واحد. " وأراد قطعها، فلما رأى النار والمكازي جزع وعدل، وقيل : بل اتبع رأي شُريح.

فلما بلغ موته عبد الله بن عمر بن الخطاب قال : " إذهب ابن سميّة ! لا الآخرة أدركتَ، ولا الدنيا بقيت عليك ".

ورثاه مسكين الدارميّ، فردّ عليه الفرزدق هاجياً، وكان يومئذ طريد زياد، ولكنه لم يجسر أن يهجوه في حياته لشدة سطوته وطول يده.

---

(1) الأجذم : المقطوع اليد .

وظلّ أبناء زياد يُعدون من قريش حتى استخلف المهدي العباسي فردهم على عُبيد.

خطبٌ سياسة، وإدارية، متفرقة في كتب الأدب، أشهرها الخطبة البتراء.

يبدأ زياد خطبته بذكر ما يأتي أهل البصرة من المنكرات في عصيانهم الله، فيعدد لهم مساوءهم، ويؤنبهم على فسوقهم.

ثم يعلن قانوناً جديداً للعقوبات، فكان فيها أول والٍ مسلم جاوز الحدود في أحكامه.

ثم يظهر لهم أنّه لا يحمل الحقد لأحدٍ ممن كان بينه وبينهم عداء، وأنّه لا يُبالي مبغضيه ولا يناظرهم، ويدعوهم إلى معاودة أعمالهم.

ثم يدعوهم إلى طاعة بني أُميّة، والإذعان إلى سلطان الله الذي أعطاهم.

وكانت هذه الخطبة كافية لإرهاب البصريين، فإن ألفاظها انقضت على رؤوسهم انقضاض الصّواعق، فوجموا لها وفُتّ في عضدهم، وهالهم ما فيها من تهديد ووعيد، وما إن همس هامس: " أنبأنا الله بغير ما قلت " وأراد بذلك الأحكام التي جاوز فيه السنّة، حتى سمعه زياد فقال : " إنّا لا نبلغ المراد فيك وفي صحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً ".

ولم يكن زياد هازلاً في كلامه، فإنّه لم يلبث أن قرن القول بالعمل، فكان رهيباً في خطبته، ورهيباً في تنفيذ أحكامه.

وتمتاز خطبته بما في معانيها من جلاء وبلاغة، على إيجاز كثير من اللفظ، وما في تنسيقها من فن وجمال، فإنّه وقف في القسم الأول منها موقف

واعظ يذكر للقوم ذنوبهم، ويذكرهم كتاب الله وما فيه من وعد طيّب للمتقين، ووعيد راعب للفاسقين.

ثم أنه وقف في القسم الثاني موقف القاضي المشرع، فبيّن للقوم أنهم احدثوا في الإسلام أحداثاً غير مألوفة، فأحدث لهم عقوبات غير مألوفة. ونستدل من هذا القسم أن العرب في صدر الإسلام ظلوا يحنون إلى جاهليتهم ويدعون بها ن ولأنهم رأوا في الإسلام نُظماً وقيوداً لم يتعودوها. وأراد زياد أن يُفهم البصريين أنّه جادّ في تنفيذ شرائعه، فأحلّ لهم معصيته إن تعلقوا عليه بكذبة : " إن كذبة المنبر بلقاءّ.. " ويختم هذا القسم بدعوتهم إلى الاقتداء به وإلا ضرب أعناقهم.

ووقف في القسم الثالث موقف الحكَم النزيه العادل ؛ المصفّى من الحزازات والضغائن، المرتفع عن الأحزاب : " فربّ مُبتئسٍ بقدومنا سيُسَرّ، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

ووقف في القسم الأخير موقف سياسي داهية يبثّ الدعوة للأمويين، فطلب من البصريين السمع والطاعة، ووعدهم بقضاء حاجاتهم، وإعطائهم الرزق في وقته، وعدم حبس الجيش في أرض العدو.

ثم أفهمهم أنّهم أعجز من أن يبلغوا مأرباً من أئمتهم إذا أبوا الخضوع لهم، وأن بني أُميّة خير لهم من غيرهم. وكان ختام خطبته وعيداً ليظلّ صوت التهديد يطنّ في آذانهم : " إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كلّ امرئٍ منكم أن يكون من صرعاي !... "[1].

---

(1) ادباء العرب ص 388-392.

الكتابة وتطورها

نستطيع أن نتبين- مما عرضناه عليك من كتابته ومما سواء- طريقة عبد الحميد في الكتابة، وهي تتميز من سواها بالوجوه الآتية:

1-المبالغة في طرفي الأطناب والإيجاز-كان عبد الحميد يطيل في رسائله غاية الإطالة في المواطن التي تدعو إليها، وذلك كأخبار الفتوح، والتهيؤ للعدو،وفي وصايا القواد، وما يصدر عن الخليفة من وعد ووعيد، فانه في هذه يستقصي المعاني والأفكار مما فيه تفخيم أمر الملك، وما فيه ابتعاث الحميه والعزائم في قلوب الجند، وفي تصوير النصر، وتأميل المحسن الموقى بعده، وإرهاب المسيء الخارج على السلطان وكذلك كل ما فيه توضيح خطة، ونهى عن أمور مستكرهة، فتقضى هذه الإطالة التمهيد للغرض بالمقدمات، وبيان سياسة الملك،واستفظاع ذلك الأمر، وهو لا يألو في سوق الجمل المزدوجة والمترادفة لتأكيد تلك المعاني والتشديد فيها.

ويوجز أحياناً في رسائل، فيكتب في سطر ما يؤدي به مقصوده، وذلك في مثل ما يكتبه على لسان الخليفة إلى العمال بالاستيحاش من العدو، والتنبيه له، أو في مثل إعلان عن هزيمة، أو تكليف للرعيّة، أو شفاعة لشخص واستقضاء حاجة، وكذلك كل امر أو نهي يوجه إلى المرؤوس.

ولتمكنه من طرفي الاطناب والايجاز، قالوا : " يكتب في سطر واحد ما يكتب، في حمل بعير، ويكتب في حمل بعير ما يكتبه في سطر واحد ".

2- الترسُّل- وهو التجرُّد في الكلام من قيود السجع، وإرساله، إلا ما قد يجئ عفواً من غير اجتلاب أو قصد إليه، حتى قالوا فيه : انه سهَّل سبيل البلاغة في الترسُّل، وعنه أخذ المترسِّلون، ولكنه يميل إلى الازدواج في الجمل والترادف فيها، ولاسيما في رسائله المطولة، إذ يقصد فيها إلى زيادة تأكيد المعاني وتقويتها في نفوس المخاطبين، وفي الأمثلة التي بين يديك وفي غيرها ما تصدق فيه هذه المزية.

3- اطالة التحميدات – من الرسوم التي استحدثها عبد الحميد إطالة التحميدات في أوائل الرسائل، وتكرير فصولها، وكانت من قبل يكتفي منها بجملة واحدة أو جملتين، وينتقل الكاتب منها إلى غرضه. أما عبد الحميد، فقد توسع فيها غاية التوسع بحيث استغرقت السطور الكثيرة من الرسالة أو الصفحات منها حتى ينتقل إلى الموضوع الذي هو بصدده.

4- تنوع البدء والختام- نوَّع عبد الحميد البدء في رسائله، وجعله تبعاً لموضوع الرسالة، فبدء الرسالة التي يكون موضوعها تولية العهد مثلاً غير بدء رسالة الاخبار عن الفتوح، فالأولى تبدأ بعد البسملة بـ " هذا ما عهد.... " وهي الصورة القديمة، والأخرى تبدأ بالحمد، ابتهالاً لله عز وجل على ما أنعم، وهكذا في بقية الموضوعات. كما قيل أنه أول من عَقَّبَ بالحمد بعد البسملة مفصولاً عنها بـ " أما بعد "، أي هكذا : " بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فالحمد لله.... ". كما نوَّع الختام بحسب موضوعات الرسالة أيضاً، فجعله بهذه الصور وأمثالها : " والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " و" فان رأيت ان تفعل ذلك، فعلت موفقاً ان شاء الله " و " حسبنا الله ونعم الوكيل ".

5- التكرار وترادف الجمل- من عيوب طريقة عبد الحميد الكاتب في المطولة، لجوؤه إلى تكرار المعاني، وإتيانه بالجمل المترادفة المنصبة على معنى واحد، أو معان متشاكلة متقاربة، والناظر في رسائله المطولة يلمس ذلك في كل فصل من فصولها، بل كل مقطع من مقاطعها. فنجد في: " أقدم بهم على شبهة مهلكة، وزيّن لهم ورطة موبقة، وغرَهم بمكيدة " ثلاث جمل تدور على معنى واحد، وكذلك قوله بعدها : " مستحلاً لها، مشيداً بها، مظهراً لارتكابه إياها، غيرَ حذر عقاب الله عز وجلّ، ولا خائف مكروهاً فيها، ولا رَعب من حلول سطوته عليها "، وكل هذه الأوصاف مما يمكن الاكتفاء منه بوصف واحد، فكأنه قد قصد بهذا التكرير إلى التطويل قصداً، وانك واجد أمثال هذا في سائر سطور الرسالة، وكذلك في رسائله الأخرى الطويلة.

عبد الحميد الكاتب

هو أبو غالب عبد الحميد بن يحيى الملقب بالكاتب. شاميّ الأصل، نشأ بين العرب ولم يكن عربيّاً. وقيل إن ولاءه في بني عامر، وكان في أول أمره يعلّم الصبية وينتقل في البلدان، وحكي أنّه علم في الكوفة حتى اتصل بمروان بن محمد الأموي، وكان أميراً على أرمينية، فكتب له. فلمّا بويع بالخلافة آخذه معه إلى الشام. فبقي ملازماً له لا يفارقه، مع اشتداد الثورة الخراسانية وضعفه عن إخمادها. واشتد الطلب على مروان وتتابعت هزائمه، فقال لعبد الحميد : " القوم محتاجون إليك لأدبك، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك، فاستأمن إليهم وأظهر الغدر بي، فلعلّك تنفعني في حياتي أو بعد مماتي، فقال عبد الحميد :

أُبسِرّ وفاءً، ثمّ أُظهِرُ غَدوةً،

فمن لي بعُذْرٍ يوسِعُ الناسَ ظاهِرُهْ

ثم قال : " يا أمير المؤمنين، إن الذي أمرتني به أنفعُ الأمرين لك وأقبحهما لي. ولكن أصبرُ حتى يفتح الله عليك أو أُقتل معك. " فلما قُتل مروان استخفى عبد الحميد عند صديقه ابن المقفعّ، وفاجأهما الطلب وهما في بيت واحد. فقال الذين دخلوا : " أيكما عبد الحميد ؟ " فاقل كل واحد منهما " " أنا" خوفاً على صاحبه. إلى أن عُرف عبد الحميد فأخذ. وسلمه السفاح إلى عبد الجبار صاحب شرطته، فكان يحمي له طشتاً ويضعه على رأسه إلى أن مات سنة 132هـ. وقيل إنّه قُتل مروان في مصر، وذكر المسعودي أنّه رأى له عقباً بفسطاط مصر يُعرفون ببني مُهاجر، وقد كان منعم عدة يكتبون لآل طولون.

كان عبد الحميد كاتب دواوين، ولم يُعرف عنه أنّه عني بتصنيف الكتب كصديقه ابن المقفع، بيد أنّه نظم الشعر مثله على قلّة، فرويت له أبيات لا تعدوها الجودة، وإن كانت لا تجعله في طبقات الشعراء. فإن صاحبنا توفّر على إنشاء الرسائل دون غيرها، فبرع فيها، وكان له أثر بيّن في تبديل أُسلوبها القديم. قال ابن خلكان : " إن مجموع رسائله مقدار ألف ورقة " ولكن لم يصل إلينا منها سوى رسالة ولي العهد، ورسالة الشطرنج، ورسالة الكتّاب، ورسائل أخرى قصيرة، أو هي قطع من رسائل لم تبلغ إلينا تامّة، منها رسالة في وصف الإخاء، ورسالة إلى أهله وهو منهزم مع مروان، وانتهى إلينا عنه عدة تحميدات مستقلة أو مقتطعة من صدور كتبه.

وقيل إنه لمّا ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس كتب إليه عن مروان كتاباً يستميله ويضمنه ما لو قرئ لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبي مسلم. وكان من عظمه يحمل على جمل. ثم قال لمروان : " قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره. فإن يكن ذلك وإلاّ فالهلاك. " فلما ورد الكتاب على أبي مسلم لم يقرأه، وأمر بنار فأحرقه، وكتب على جُزازة منه إلى مروان :

محا السَيْفُ أسطارَ البلاغةِ، وانتحى

عليكَ ليوثُ الغابِ من كلّ جانبِ

ومهما يكن من أمر هذه الرسالة التي حُملت على جمل وخشية أبي مسلم منها حتى أمر بإحراقها، فإنها تشير، على علاتها، إلى أن الإيجاز الذي تعودناه في رسائل صدر الإسلام قد حلَّ محله الإسهاب، وأن عبد الحميد أول من شذّ عنه وأطال الرسائل فبلغ بها عدة صفحات، ودليلنا على ذلك رسالة ولي

العهد فإنها تزيد على خمس وعشرين صفحة من القطع المألوفة. وآثاره متفرقة في كتب الأدب، جمعها محمد كرد علي في كتاب (رسائل البلغاء).

وأسلوب عبد الحميد في جملته، يتفاوت بياناً وتجويداً في كثير من رسائله، فانه يسمو في بعضها سمّواً ظاهراً كما في رسالته إلى الكتّاب التي أوردنا شيئاً من أولها، ويسف في بعضها، كما في رسالة الشطرنج والرسالة التي كتبها على لسان مروان إلى ولده عبد الله لمحاربة الضحاك بن قيس، كما أن فيها ما يصدر عن طبع مؤات وقريحة ومستجيبة، وفيها ما ينم على تكلف ظاهر وصنعة[1].

نموذج من الكتابة :

((.. تنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الأدب، وتفقهوا في الدين، وابدوا بعلم كتاب الله عزوجل والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الإشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرتها فان ذلك معين لكم على ما تسموا إليه هممكم..)).

معاني المفردات :

المعشر :أهل الرجل، صنوف : أنواع، تفقهوا في الدين :افهموه، الفرائض: علم المواريث، أيام العرب : وقائعهم، الهمة : ما هم به من أمر ليفعل والجمع همم.

(1) الأساس ص290-293.

الشرح والتحليل :

كانت عبد الحميد الكاتب وفيا لمهنته، ومحبا للكتاب جميعا، عارفا بفضلهم، غيورا عليهم، ويتجلى ذلك في رسالته السابقة إليه، فقط وضع للرسائل أسساً وأصولاً فانتقل بهما من الإيجاز إلى التطويل والإطناب مع تجويد الأسلوب وإبراز الحقيقة في ثياب الخيال حتى بلغت الكتابة مكانه رفيعة على يديه. وهو أول من قسم الرسالة أقساما متناسبة وحلل كل قسم منها تحليلا دقيقا وربط بين أجزائها وفقراتها، ورتب أفكارها ترتيبا منطقيا سليما، كما ان له قدرة فائقة على انتقاء الألفاظ واختيار العبارات ذات الإيقاع الموسيقي الذي يعتمد على تناسقها واتحادها في الطول والقصر.

وقد تأثر عبد الحميد الكاتب بالقران الكريم فغلبت الروح الإسلامية على كتابته، كما اهتم بتجويد العبارة وسلاستها ومنح خيلا خصبا في الصور البلاغية الرائعة التي يعرض بها أفكاره ومعانيه ففي قوله (فانه حلية كتبكم)تشبيه بليغ.هذا وقد دلت كثرة الأفكار وتنوعها على ثراء اللغة عند عبد لحميد الكاتب ولذلك فاق الكتاب وصار أستاذاً لمن جاء بعده حتى قيل (بدئت الكتابة بعبد الحميد).

فن الرسائل

وبجانب الرسائل الديوانية المتدفقة طوال عهد بني أميَّة قامت الرسائل الأخوانيَّة، وهي التي تتصل بالحياة الاجتماعية وتصوِّر حياة الخاصة فيها وتعبر عنها في بعض المواقف التي تتصل بصاحب الرسالة نفسه.

ومن هذا النوع رسالة وجهها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى رجل من إخوانه يقول فيها : (1)

" أمَّا بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء من غير ذنب، فأطمعني أولُّك في إخائك، وآيسني آخرك في وفائك، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحاً، ولا أنا في غد انتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، فأقمنا على ائتلاف أو افترقنا على خلاف والسلام ".

والرسالة مع قصرها تنم عن براعة صاحبها في الكتابة ودقته في التعبير وهو يستفيد من المقابلات والسجع الازدواجي في تحسين كلامه وتجميله.

ولأن عبد الله بن معاوية كان يعيش في أواخر عهد بني أُميَّة فهو بهذا يمثل آخر مرحلة في تطور النثر الكتابي في عده بني أمية، ومن ثم فلا غرابة في أن نلمس في رسالته صورة من الرسائل الإخوانية التي برزت في عصر بني العباس وهو العصر الذي حضر عبدالله بن معاوية طرفاً منه، ولد فيه رسالة رواها الجاحظ وجهها إلى ابي مسلم الخراساني حين غلب على خراسان

---

(1) البيان والتبيين ج2 ص255.

ونواحيها باسم بني العباس وحبس عبد الله بن معاوية فيها، والرسالة تدل على الأسلوب ذاته الذي دلت عليه رسالته الإخوانيَّة [1].

والحق أن ما وصل إلينا من الرسائل الإخوانيَّة قليل في هذا الطور ويمثل المرحلة الأخيرة من طور بني أميَّة فمما وصل إلينا رسالة أخرى كتبها سالم مولى هشام المتقدم ذكره، وجهها إلى بعض أخوانه، يشكره على جميل أسداه إليه وصنيع خصَّه به وقد جاء فيها [2]

" أمَّا بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما أسلفت إليَّ منك، جسيم الرجاء فيما بقي لي عندك، قد جعل اله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك، وجعل ما سلف إليَّ منك عوناً على مؤتنف الرجاء فيك "

وهي أيضاً كسابقتها تدل على جريان الأسلوب في مجرى تفكيري جيد، يحتوي على الدقة والتمام في إبراز المعنى وإخراجه مخرجاً حسناً.

وإذا كنا قد وقفنا على نماذج من الرسائل الديوانيَّة والرسائل الإخوانيَّة فإن هناك رسالة مهمة في بابها، في هذا الطور، ليست بالديوانية ولا بالإخوانيَّة ولكنها تدخل ضمن نطاق النثر الكتابي في هذا العهد الأموي، وهي الرسالة التي وجهها الحسن البصري إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، فهي ليست بديوانية لأن الحسن البصري لم يلِ عملاً لعمر حتى نعدها ممثلة لشأن من شؤون السياسة والحكم، وكذلك لا يمكن أن نعدها رسالة إخوانية لأن ما احتوت عليه لا يدل على ذلك. وإنما هي شيء أشبه بالوعظ الديني عن رسائل

(1) ينظر الرسالة في البيان والتبيين ج2 ص256 .

(2) جمهرة رسائل العرب ج2 ص431.

العدل في حكمه، فيسأل عن ذلك واعظ البصرة وعالمها وزاهدها الحسن البصري، فيجيبه الحسن برسالة تدل على ما طلب وتنيله ما سعى إليه وتفيض، يقول الحسن البصري في وصف الإمام العادل [1]:

" اعلم يا أمير المؤمنين أنَّ الله جعل الإمام العادل قوام كلِّ مائل، وقصد كلِّ جائر، [2] وصلاح كل فاسد، وقوة كلِّ ضعيف، ونصفه كلِّ مظلوم [3] ومفزع كل ملهوف، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع ويكفيها من أذى الحرِّ والقر [4]، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياتهن ويدخر لهم بعد مماته، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة، البرَّة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً وربته كفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتعظمه أخرى وتفرح بعافيته، وتغتم لشكايته ".

فهي إذن كتابة وعظيَّة، عمد فيها الحسن إلى السبيل الذي يسلكه في مواعظه التي رأيناها في خطبه والتي تدل من حيث الأسلوب على استيفاء الفكرة من جميع النواحي، وإيراد الصور التي تجليها وتوضحها في نصاعة وبيان، كما أنه يعتمد فيها على إعطاء الفكرة حقها من خلال الإطناب

---

(1) العقد الفريد ج1 ص34.

(2) القصد هنا الهداية ، والجائر الظالم.

(3) النصفة بمعنى الانصاف.

(4) القر : البرد .

القائم على تتابع الجمل ذات المعنى الواحد وعن طريق التصوير الذي يتملك وجدان القارئ وعقله.

وجملة القول في فن النثر الكتابي في هذا الطور الأموي أنه كان يسير صاعداً عتبات الرقي والتطور عتبة بعد أخرى، مستفيداً من كل العوامل والمؤثرات التي طرأت على حياة العرب المسلمين وشكلّت ثقافتهم الأدبيَّة، وهي ثقافة عربيَّة ترجع إلى ما قبل الإسلام، وتلم بما جد بعد الإسلام من ثقافة دينية عميقة الفكر، وتلتحم بغيرها من ثقافات الأمم الأخرى، وهو نثر يصوِّر حياة الأمة العربيَّة في أهم طور يمثل تحوُّلها إلى عالم الفكر والحضارة في أكمل صورة عرفتها الإنسانية

المصادر و المراجع

1. الأخبار الطوال: الدينوري، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ القاهرة 1960
2. اخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار:الأزرقي، مكة 1352هـ
3. آدب الخوارج في العصر الأموي: سهير القلماوي ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة1945.
4. الأدب في موكب الحضارة الإسلامية:مصطفى الشكعة، ط الانجلو ـ القاهرة 1968
5. أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: بطرس البستاني، دار الجيل- بيروت 1979
6. الأساس في تاريخ الأدب العربي: محمد بهجة الأثري ومصطفى جواد وكمال إبراهيم، مطبعة الشركة الإسلامية للطباعة ـ بغداد دت
7. الاصابة:ابن حجر العسقلاني، مط السعادة ـ القاهرة 1328هـ
8. الأغاني: ابو الفرج الاصفهاني، ط ساسي، القاهرة
9. البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط الحلبي ـ القاهرة 1945
10. تاريخ الأدب العربي: حنا الفاخوري، المطبعة البولسية ـ بيروت 1960
11. تاريخ الطبري: ط الحسينية ، وتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ القاهرة 1976
12. التطور وا لتجديد في الشعر الأموي: شوقي ضيف، ط دار المعارف ـ القاهرة1959

13.جمهرة رسائل العرب: محمد زكي صفوت، ط البابي الحلبي ـ القاهرة.
14.الحياة الأدبية- عصر بني أمية: محمد عبد المنعم خفاجي،دار الكتاب اللبناني- بيروت 1980
15.حياة الشعر في الكوفة: يوسف خليف: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة 1968
16.خزانة الادب:البغدادي، ط بولاق وط دار الكتب العلمية ـ بيروت 1998
17.ديوان الادب: محمد بهجة الاثري وكمال ابراهيم وعبد الكريم الدجيلي، شركة النشر والطباعة العراقية ـ بغداد دت
18.ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات:تحقيق محمد يوسف نجم ط دار صادر. بيروت دت
19.ديوان النابغة الجعدي: تجقيق واضح الصمد، ط دار صادر، بيروت، 1998.
20.رسائل الجاحظ: نشر السندوبي.
21.شرح الهاشميات: محمد محمود الرافعي ط التمدن الصناعية القاهرة
22.الشعر الإسلامي والأموي: يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة- بيروت2005
23.شعر الخوارج: جمع احسان عباس
24.الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق احمد محمد شاكر، دار المعارف ـ القاهرة 1966
25.العصر الإسلامي: شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة 1976،
26.العقد الفريد: ابن عبد ربه، ط لبنان 1957،
27.فجر الإسلام: احمد امين، مط النهضة ـ القاهرة دت

28.الفهرست: ابن النديم.ط الرحمانية ـ القاهرة

29.في أدب الإسلام، عصر النبوة والراشدين وبني امية: محمد عثمان علي، كلية الدعوة الاسلامية ـ جامعة الفاتح 1994

30.في الشعر الإسلامي والأموي: عبدالقادر القط، دار النهضة العربية ـ بيروت 1979

31.الكامل في اللغة والادب: المبرد، تحقيق زكي مبارك واحمد شاكر، ط الحلبي ـ القاهرة 1937.

32.لسان العرب:ابن منظور

33.مروج الذهب:المسعودي، ط محمد محيي الدين عبد الحميد، ط مصر

34.معجم الشعراء:المرزباني.، تحقيق عبد الستار فراج، القاهرة 1960

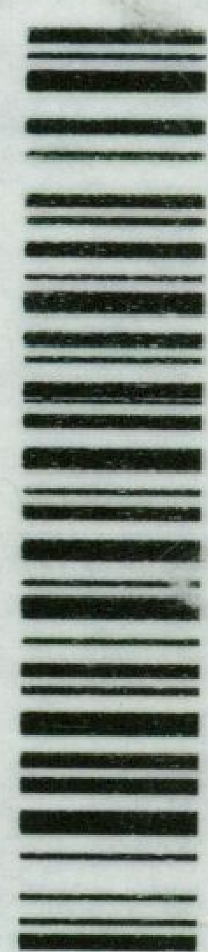
35.الملل والنحل: الشهرستاني، نشر محمد بدران، القاهرة 1947

36.الموجز في الأدب العربي وتاريخه، لجنة دار المعارف، القاهرة، د.ت،

37.النقائض: ابو عبيدة، تحقيق بيفان، ط ليدن 1905

38.وفيات الأعيان:ابن خلكان، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة ـ بيروت دت

الأدب الأموي





للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية
عمان - العبدلي - شارع الملك حسين
قرب وزارة المالية - مجمع الرضوان التجاري رقم 118
هاتف: 4611169 6 962+ - 4616436 6 962+
فاكس: 4616435 6 962+
ص.ب 926141 عمان 11190 الأردن
E-mail : gm.redwan@yahoo.com
www.redwanpublisher.com

مؤسسة دار الصادق الثقافية
طبع . نشر . توزيع
العراق - بابل - الحلة - هاتف : 009647801233129
E-mail : alssadiq@yahoo.com

